T
71A

الاسس الحضارية
للتربية
في سومر واكاد

منير انطونيوس بشور

رسالة رفعت الى دائرة التربية
في الجامعة الاميركية في بيروت
لاستكمال المتطلبات لنيل درجة
استاذ علوم

الجامعة الاميركية في بيروت
حزيران ١٩٥٨

الاسس الحضارية للتربية

في سومر واكاد

كلمـــة شكـر

يـــود الكاتـب ان يتقـدم بالشكـر والامتنـان من الاساتـذة : فايزة انتيبا ، استاذة التربية في الجامعة الاميركية في بيروت ، والدكتـور ديمترى براملي ، استاذ التاريخ القديم في الجامعة نفسها ، لما قدماه له من ارشاد وتوجيـــه . كما يـود الاعتـراف بالشكـر لاعضاء لجنـة الرسالة : الدكتور حبيب كورانـــي ، رئيس دائرة التربيـة في الجامعة الاميركية في بيروت ، والاستاذ جبرائيل كاتـول ، والدكتور نعيـم عطيـة ، من اساتذة دائرة التربية في الجامعة نفسها لقبولهـم الاسهام في اللجنة والاشراف على الرسالة .

موجز الرسالة

هدف هذه الرسالة هو استجماع خطوط تنقيبات ودراسات مختلفة حول الحضارة السومرية وتركيز هذه الخطوط على التربية ، بحيث يمكن ابرازها من مختلف وجوهها . انها محاولة تنبثق من الايمان بان كل جهد اصلاحي لا يرتكز على معرفة الذات التاريخية ، من خلال دراسة الماضي ، لا يمكن ان يؤدى الى نهضة جذرية .

ولقد تم اختيار الحضارة السومرية باعتبارها :

١) نشأت في بقعة من ارضنا .

٢) تمثل احدى الخلجات الاولى في الحضارة البشرية ترجع الى ما بين الخمسة والستة الاف سنة .

٣) تمتاز بدرجة عالية من الرقي .

٤) اثرت ، جوهريا ، في الحضارات التي تلت فيما بين النهرين اولا ، والشرق الاوسط ، ثانيا ، والعالم ثالثا .

يرتكز مخطط هذه الرسالة على ثلاثة اسئلة رئيسية خصص لكل منها فصل :

١) اين ومتى عاش السومريون ؟

٢) كيف عاشوا اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا ؟

٣) ما هي المعتقدات والفكر والقيم التي وجهت سلوكهم ٠

وقد خصص الفصل الاخير للتربية بحيث يمكن ابرازها من ضمن اطارها الحياتي العام ٠

بالرغم من عدم تمكننا من الوصول الى المصادر الاولى للحضارة السومرية ، فقد تسنى لنا من خلال دراسة نصوص اصلية مترجمة عن اللوحات الاثرية ، وبعض الكتابات الاخرى الوصول الى الحقائق والاستنتاجات التالية :

١) نشأت الحضارة السومرية في المثلث الجنوبي من بلاد ما بين النهرين حول مصب نهرى دجلة والفرات في الخليج الفارسي ، واما الحضارة الاكادية فقد نشأت الى الشمال من سومر ، وتعتبر امتدادا للحضارة السومرية ٠

٢) بدأت طلائع النشاط البشرى في سومر في حدود ال ٤٠٠٠ ق٠م٠ وينتهي العصر السومرى الاكادى في حدود ال ١٨٩٤ ق٠م٠ بقيام اولى السلالات البابلية ٠

٣) ترتكز المظاهر الحياتية للحضارة السومرية على اسس دينية ٠ فالمعبد كان قلب المجتمع وقوته الموجهة ، ولكن تدريجيا ابتدأ المجتمع السومرى يميل نحو العلمانية (Secular).

٤) يعتبر المؤرخون والفلاسفة ان السبب الجوهرى لانفتاح افاق الفلسفة امام السومريين هو امتيازهم بالمقدرة على التفكير المجرد ٠ ويعتبر كثير من العلماء ان امتلاك المقدرة على التجريد الفكرى هو السبب الجوهرى

لنشوء الدين والفلسفة والعلوم المختلفة ٠

٥) يبرز الطابع الديني في الفلسفة السومرية كذلك٠ فقد اهتم السومريون اهتماما بالغا بتفسير القوى الطبيعية لما كان لها من اثر في حياتهم ٠

٦) ادى انهماك السومريين بتفسير القوى الطبيعية الى اهمالهم البحث في طبيعة المعرفة والحقيقة ٠ ولكن الاعمال اليومية التي كان يتحتم عليهم القيام بها فرضت عليهم تدريجيا نظرة معينة الى الحقيقة تشابه النظرة الحديثة المعروفة بالعملية (Empiricism).

٧) تنبثق القيم السومرية من ايمانهم بان الانسان انما خلق ليخدم الالهة باتساق اعماله مع ارادة الالهة التي تتجسد بقيم تنبثق من حاجات المجتمع واوضاعه ٠

٨) كانت التربية السومرية ، تجرى على نوعين :

١) التربية غير المدرسية ، بما فيها التربية بالتدريب ٠ ٢) والتربية المدرسية ٠ الاولى تهدف الى تطبيع الفرد بطابع الجماعة ، من خلال العادات والمفاهيم والطقوس السائدة في المجتمع ٠ والثانية جاءت تلبية لحاجة المعابد للكتبة ، وتطورت مع تطور حاجات المجتمع حتى اصبحت المدارس محور النشاط الفكرى والعلمي في المجتمع٠

٩) ظهرت اولى العلامات الكتابية في حدود ال ٣٥٠٠ ق٠م٠ بشكل صوري ، وقد تطورت الكتابة تدريجيا لتصبح رمزية وصوتية ، وتناقص عدد العلامات حتى وصل الى ٦٠٠ علامة في حدود ال ٢٥٠٠ ق٠م٠

١٠) مع تطور الايام استقلت المدرسة السومرية عن المعبد كما تطورت مناهج التعليم واصبحت تحتوى على شقين علمي : الجبر والرياضيات وعلم النبات والحيوان والتعدين والطب • وقد برع السومريون في حقل الجبر حتى ان العالم المؤرخ جورج سارتون يقول ان المآثر الرياضية السومرية ضاعت في العصور التي تلت سومر لعدم مقدرة هذه العصور على فهمها، الى ان تسنى لهذه المآثر الظهور مجددا في القرن السادس والسابع عشر بعد المسيح •

ويتألف الشق الادبي من تعليم الكتابة والصرف والنحو ودراسة المؤلفات الادبية الكثيرة ونسخها وتقليدها •

١١) كانت اهداف المدرسة السومرية ومناهجها منسجمة مع الفلسفة السومرية التي تعتبر ان الغاية من خلق الانسان هي تامين خدمة الالهة •

يقول المؤرخ ول ديورانت "انه في سومر ضرب الوتر الذى نسج التاريخ على منواله الاف الانغام •" ولا يسع الباحث المسؤول الا ان يتساءل عن مصير هذا الوتر ويلح في تتبع اثره في الحضارات التي تلت سومر وينفتح على رنينه ويستوعب معناه بالنسبة للزمن الحاضر •

المحتويات

	صفحة
كلمة شكر	iv
موجز الرسالة	v - viii
المحتويات	ix - xii
المقدمة	١ ـ ٦
قيمة البحث في الشخصية التاريخية للامة	١
اولية سومر في تاريخ الحضارة	٢
قيمة الماضي	٣
الفصل الاول	
نظرة تاريخية عامة الى بلاد ما بين النهرية منذ فجر التاريخ حتى اوائل العهد البابلي عام ١٨٩٤ ق.م.	٧ ـ ٢٤
بلاد ما بين النهرين في فجر الحضارة	٧
التغيرات الجيولوجية في بلاد ما بين النهرين	٨
نزوح الموجات البشرية الاولى الى بلاد ما بين النهرين	٩
مصدر الاقوام السومرية	١١
تقسيم التاريخ السومرى الى مراحل وخصائص كل منها	١٢
المراحل السابقة لعصور فجر السلالات	١٢
عصور فجر السلالات	١٨
التطور التاريخي بعد عصور فجر السلالات	٢٠
نهاية العهود السومرية	٢٤

الفصل الثاني

صفحة

مظاهر الحياة السومرية ٢٥ _ ٦٨

أ _ الحياة الاجتماعية في سومر ٢٥ _ ٣٨

العلاقات العائلية ٢٦

الحس الديني واثره في العلاقات الاجتماعية ٣٣

المدينة واثرها في العلاقات الاجتماعية ٣٤

الطبقات في المجتمع السومرى ٣٥

الشرائع واثرها في العلاقات الاجتماعية ٣٦

العبيد ومكانتهم في المجتمع السومرى ٣٧

ب _ الحياة الاقتصادية في سومر ٣٩ _ ٥٥

اثر البيئة في الحياة الاقتصادية ٣٩

ارتباط الاقتصاد السومرى بالمعتقدات الدينية ٣٩

الزراعة ٤١

الصناعة ٤٦

التجارة ٥٠

جـ _ الحياة السياسية في سومر ٥٦ _ ٦٨

اختلاف التفسيرات لانواع الحكم في العهد الشبيه بالكتابي وما قبله ٥٧

مفهوم الدولة في ما بين النهرين ٥٩

تطور الحكم في العهد الشبيه بالكتابي وما بعده ٦٤

الفصل الثالث

الفلسفة التربوية في سومر واكاد ٦٩

أ _ الميتافيزيقيا ٦٩

بواعث نشوء التفكير الميتافيزيقي ٦٩

طبيعة التفكير السومرى ٧٠

تركيب المجمع الالهي ٧٢

صفحـــة

معتقدات السومريين باصل الوجود والخلق ٧٩
الغاية من خلق الانسان ٨٨
الموت ٩٠

ب ـ الابستملوجيـا ٩٦ ـ ١٠٦
انشغال السومريين عـن البحث في الابستملوجيا ٩٦
مصدر المعرفة ـ طبيعتها ـ دور العقل في تتبعها ٩٧
تطور النظرة الى الحقيقـة ١٠٤
العملية في التفكير السومرى ١٠٥

جـ الاكسيولوجيا ١٠٧ ـ ١٢٦
ارتباط القيم السومرية بالايمان الديني ١٠٧
الخوف والدين ١٠٨
التواتر بين القيم الاجتماعية والدين ١١٥
التشريع ودلالاته الاخلاقية ١١٦
الوعي الاخلاقي كما يظهر من خلال القصائد والامثال الشعبية ١١٩
بروز الشك والتشاؤم في الفكر السومرى ١٢٣
الطابع الاخلاقي العام للسومريين ١٢٥

الفصـل الرابـع

التربية والتعليم في سومـر ١٢٧ ـ ١٥٧
العلاقة بين التربية والحضارة ١٢٧
معنى التربيـة ١٢٧
التربية غير المدرسية واهدافها وطرائقها ١٣٠
نشوء الكتابة ١٣٨
نشوء المدارس ١٣٨

صفحـــة

شكل المدرسة السومرية وموقعها ١٤٠
اهداف المدرسة السومرية ١٤٢
انسجام اهداف التعليم المدرسي مع الفلسفة السومرية ١٤٤
منهاج المدرسة السومرية ١٤٥
الشق العلمي ـ والشق الادبي ١٤٧

طـرائق التعليم ١٥١
ادارة المدرسة السومريـة ١٥٥
الانتساب الى المدرسـة ١٥٦
تعليم البنـات ١٥٦

كلمـة اخيرة حول التربية والتعليم في سومـر ١٥٧

كلمة اخيرة في الموضوع ١٥٨

المراجـع ١٦٠ ـ ١٦٢

جـــدول بالخرائط والصور

	صفحـــة
خريطة بلاد سومر واكاد في حدود ال ٣٠٠٠ ق٠م٠	xiv
مشهـــد الحـــراثة	٤٣
صورة تبين تطورالكتابة الاسفينية بين ٣٦٠٠ ق٠م٠ و ٦٠٠ ق٠م٠	١٣٨
صورة لغرفة مدرسية في مدينة مارى منذ النصف الاول للالـــف الثالث قبل الميلاد	١٤١
مخطط لبناء مدرسة من عهد حمورابي	١٤١

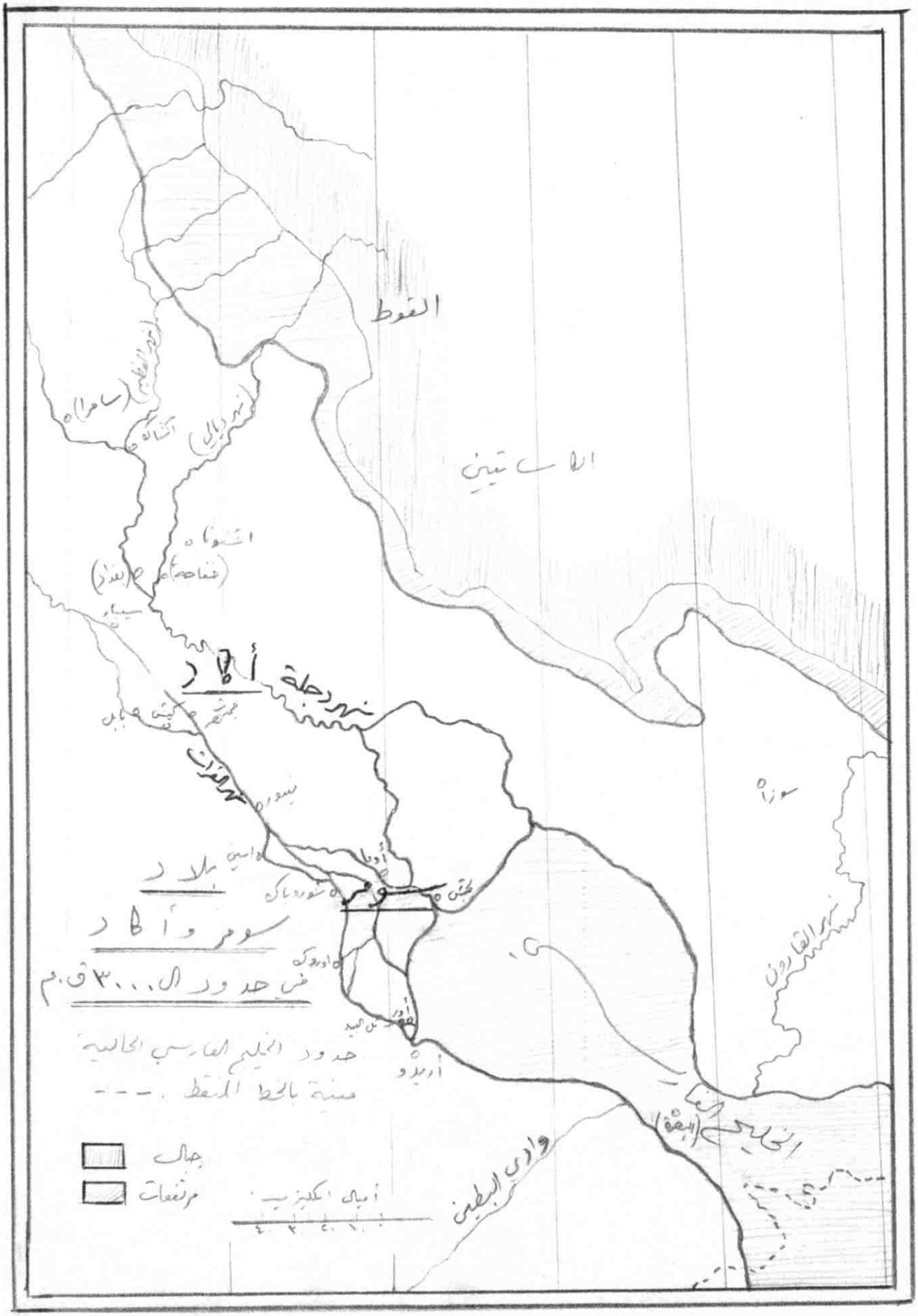
الفرط
الاستين
نهر ديالى
نهر الفرات
سومر وأكد
في حدود ال ٣٠٠٠ ق.م
حدود الخليج الفارسي الحالية
جبال
مرتفعات

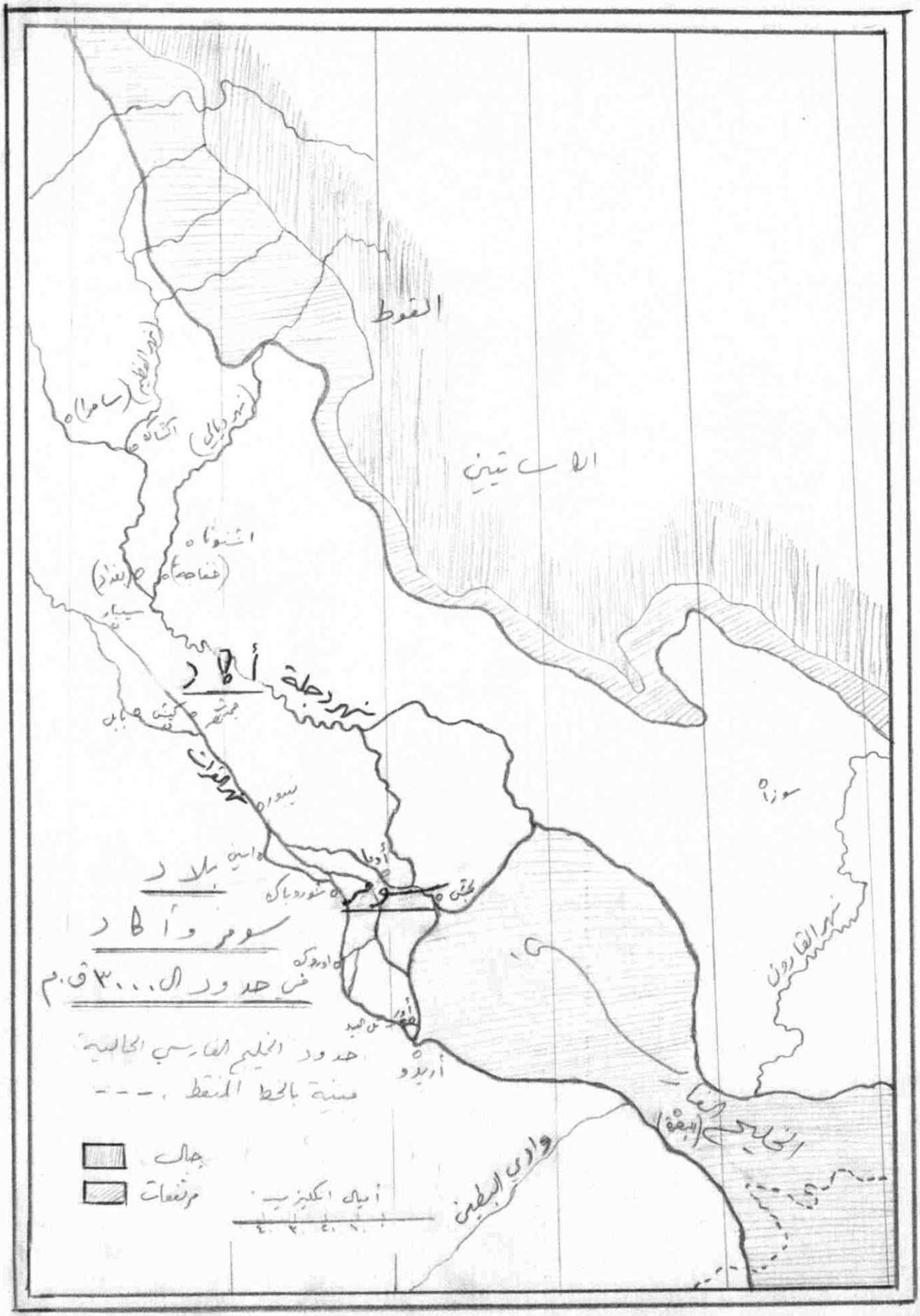
الفرات
الأساتين
نهر دجلة
أكاد
بلاد سومر وأكاد
في حدود ال ٣٠٠٠ ق.م
حدود الخليج الفارسي الحالية
ممثلة بالخط المنقط
جبال
مرتفعات
أميال انكليزية
وادي البطين
نهر القارون

مقـــدمـــة

في هذه الفترة التي تواجه فيها امتنا والعالم العربي بوادر نهضة عامة ، يلاحظ المدقق افتقار مجموع الشعب الى وعي صحيح لماهية الشخصية الحضارية لهذه الامة . والطالب الواعي المسؤول حين يطّلع على تاريخ التربية وتطورها في مختلف بلدان العالم ، لا يسعه الا ان يلتفت الى تاريخ امته لينقب فيه عن خصائصها التربوية ، كوسيلة لتبين خصائص هذه الشخصية التاريخية . فالاساس في كل عمل اصلاحي جدى هو معرفة الذات ، ان كان المعنيّ بالاصلاح الفرد ام الامة ، اذ بدون معرفة الذات يبقى الجهد الاصلاحي مشوشا مضطربا من الصعب ان يؤدى الى الغاية المرجوة .

والبحث في تاريخ التربية يتناول جانبا من جوانب هذه الشخصية ، ولكنه الجانب الاهم باعتباره يمثل المحور الذى تلتقي فيه مختلف النشاطات البشرية كما يمثل الوجه الذى تنعكس عليه مختلف معتقداتهم وفكرهم وقيمهم .

على ان البحث في هذا الجانب من الشخصية التاريخية تعترضه مصاعب كثيرة ، بسبب ما اصاب تاريخ التربية في هذه البقعة من العالم ، من اهمال . فمعظم الدراسات تغفل التطورات التربوية التي نشأت في هذه البلاد قبل ازدهار الحضارة في اليونان في حدود القرن الثالث او الرابع ق.م . ، وهي حين تمر بالمراحل السابقة لليونان ، فانها تفعل ذلك بشكل سريع لا يعطي القارئ فكرة واضحة ومفصلة عن طبيعة التربية والتطورات التي مرت بها في هذه البلاد .

لهذا كان لا بد من محاولة تنقب عن الاصول التربوية في هذه البقعة من العالم ، وتتتبع نموها وتطورها مع الزمن . وقد رأينا الاهتمام في هذه الرسالة بدراسة اصول التربية في الطرف الجنوبي من بلاد ما بين النهرين - وهو ما يعرف بسومر ، لما لهذه البقعة من اهمية في وضع الاسس الحضارية ، ليس للحضارات التالية في بلاد ما بين النهرين وحسب ، وانما في العالم كله . لقد كان المهتمون بتاريخ الحضارة البشرية يرجعون اهم المعطيات الحضارية لليونان او لليهود حين يبحثون في الدين. ولكنهم اصبحوا يعون اليوم ان اصول تلك الحضارة ترجع الى ابعد من ذلك. " لقد مضى الزمن الذى كانت ترجع فيه اصول جميع الفنون الى بلاد الاغريق ، وبطل الرأى القائل ان حضارة الاغريق قد انبعثت مثل "بلاس " كاملة النضج من دماغ " زفس " الاولومبي . وصرنا نعرف الان ان زهرة تلك العبقرية قد اجتذبت رحيقها من الليديين والحثيين ، ومن فينيقيا وكريت ، ومن بابل ومصر ، وان جذور تلك الزهرة تمتد الى ابعد من ذلك، الى سومر ، اقدم كل هذه الامم ".[١]

اذا كانت سومر هي الاصل ، فكم حرى بنا ، نحن ابناء هذه البلاد التي تشكل سومر جزءا منها ، ان نبحث في هذا الاصل ، وندرسه ونستجمع خطوطه لنظهره لابناء شعبنا ، الورثة الاصليين لحضارة سومر ؟ ان الامم الواعية التي تملك فضلا زهيدا في تطور الحضارة الانسانية تملأ مسامع العالم بمآثرها وافضالها ، فما بالنا فغلنا نحن عن مآثر حضارية يفتخر العالم المتمدن اليوم انه يستمد اصوله منها ؟

على انه لا بد من مواجهة سؤال كثيرا ما يتردد على شفاه السائلين:

---

١. Woolley, Sir Charles Leonard, The Sumerians (Oxford; Clarendon, 1929), p. 193.

ما لنا وللماضي ، خاصة وان بيننا وبينه خمسة الاف سنة او يزيد ؟ ولم نهتم هذا الاهتمام بالماضي وحاضرنا يزخر بالمشاكل التي تتطلب منا كل جهد ممكن ؟

في يقيني ان اية نهضة تبغي انبعاثا صميما في الشعب ، لا يمكنها ان تغفل الماضي . فقيمة الماضي ليست بمجرد ما يحمل من حقائق او افكار وانما في اتصال الحاضر به وتأثره بهذه الحقائق والافكار . قد يخطر للبعض ، في هذا المجال ، ان تأثرنا بذلك الماضي البعيد هو تأثر زهيد لايكاد اثره يظهر ، وقد يكون في ذلك شيء كثير من الصحة . الا ان قلة هذا الاثر او انعدامه في واقعنا مرده على الاكثر ، الى جهلنا واغفالنا لهذا الماضي . فنحن ولا شك قد تأثرنا بهذا الماضي بطريقة لا شعورية ولا ارادية الى حد بعيد ، اذ ان مثل هذا التأثر يحتمه التطور التاريخي . ولكن كيما يتم تأثرنا بماضينا بصورة اكثر مما هو عليه الان ينبغي لنا ان ندرس الماضي ونتفهم خصائصه وميزاته ، ونعي قيمته ، وان نتقبله على انه جزء منا ، من حضارتنا وعطائنا الى العالم .

لا يمكن امة ما ان تجزئ الماضي وتعتبر ان لها من العمر الف سنة ، مثلا ، في حين انه يكون قد مر عليها الفان سنة او اكثر . كما لا يمكن الشخص ان يعتبر انه بدأ حياته منذ عشر سنوات في حين انه يكون قد ولد منذ عشرين سنة . فالتاريخ اردنا ذلك ام لم نرد ، هو سير حياة ، علينا كيما نعرف انفسنا معرفة صحيحة ان ندرسه ونتتبع تطوراته / خطوة خطوة حتى الاصل .

ان لدراسة التاريخ قيمة جوهرية ، هي انها تضع الانسان الحاضر في نقطة متوسطة على خط زمني متدرج يبدأ في الماضي ويمتد باتجاه المستقبل . انها تحدد للانسان الحاضر اطاره الزمني فتضع امامه تجارب اسلافه ليختار منها الطرائق الموافقة لتقدمه نحو المستقبل . انها تساعده على تلمح معالم

الطريق التي تمتد امامه بحيث يأتي مسيره في هذه الطريق استمرارا تصاعديا نحو المستقبل .

ثم ان وعي المرء لموقعه الزمني ، الماضي وراءه ، والمستقبل امامه من شأنه ان يكسبه الشعور بان له اصلا وتاريخا وامتدادا زمنيا ، وانه ليس نقطة بدء ، ولا نقطة نهاية . بهذا يتوفر للانسان الحاضر الشعور الصميمي بانتمائه الى جماعة او حضارة ما . وهذا الشعور يكسب الثقة بالنفس والاعتزاز بالشخصية التاريخية .

من هنا ان ازدحام حاضرنا بالمشاكل التي تتطلب منا كل جهد ، لا يمكن ان يعني اغفال الماضي . وذلك لان مواجهة هذه المشكلات ذاتها بالحل الصحيح تقتضي من المرء التوجه الى الماضي للاستفادة من تجارب اسلافه ولاكتساب الاحساس بانتسابه الى جماعة معينة والى شخصية تاريخية معينة .

هدف هذه الرسالة اذن هي استجماع خطوط دراسات وتنقيبات مختلفة قام بها علماء اثار ومؤرخون مختلفون ، وتركيز هذه الخطوط على التربية بحيث يمكن ابرازها من مختلف وجوهها. غير انه في سبيل ان يتم لنا هذا لا بد اولا من التعرف الى الموقع الزمني لهذا الشعب ، والى ظواهر حياته والمعتقدات والقيم التي آمن بها ، ذلك لان التربية هي خلاصة جميع هذه العناصر ، انها التعبير الموحد عن الحياة ، ولا يمكن فهمها فهما صحيحا بدون فهم حياة الشعب المعني ذاته من مختلف وجوهها . لهذا لا بد اولا من الاجابة على سلسلة من الاسئلة :

من هو هذا الشعب ، متى عاش واين؟ ما هي طبيعة الارض التي عاش عليها وما هو مدى تأثيرها في حياته ؟ ما هي التطورات التاريخية التي مر بها ؟ كيف كان يحيا اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا ؟ وما هي المؤسسات التي انشأها والتي ضمنت له الاستمرار

التاريخي ؟ ما هي الفكر والمعتقدات والقيم التي آمن بها ووجهت اعماله عبر سياق الزمان ؟ مثل هذه الاسئلة هي المحور الذى تدور حوله الفصول الثلاثة الاولى في الرسالة .

اما عن مصادر البحث فسنعتمد على المصادر الاولية المترجمة عن اللوحات التي عثر عليها في هذا القرن والمنتشرة في مختلف متاحف العالم ، وسنعتمد على احدث الترجمات لهذه اللوحات . كما اننا سنقدم بعض النصوص الاصلية لتدعم الآراء والاستنتاجات التي نتوصل اليها . وفي نقل هذه النصوص الى العربية سنعمد الى التقيد التام بالنص الاصلي قدر الممكن. كما اننا سنعتمد على آراء مؤرخين وفلاسفة آخرين في الموضوع .

لم نعثر في دراستنا هذه على اى بحث او كتاب يعالج موضوع التربية في سومر كوحدة تامة ، لا في اللغات الاجنبية ولا العربية . على انه قد جاء في بعض الدراسات التاريخية اشارات الى التربية وفي بعض الاحيان فصول خاصة بالتربية ، ولكنها تقصر عن معالجتها كوحدة من جميع وجوهها الحضارية .

لن نحاول في هذه الرسالة ، الخروج عن الفترة التاريخية المحددة للموضوع - من فجر التاريخ في بلاد ما بين النهرين حتى اوائل العهد البابلي . وقد اعتبرنا العصرين السومرى والاكادى عصرا حضاريا واحدا باعتبار ان الثاني جاء امتدادا حضاريا للاول لم يضف اليه شيئا سوى الاسم واللغة ، وقد تبعه في الفلسفة والتفكير ومختلف مناحي الحياة . كما اعتمدنا في بعض الاحيان ، بعض النصوص التي ترجع الى اوائل العهد البابلي باعتبار انها تمثل الخط الحضاري نفسه الذى اطلقته سومر .

ان معالجة موضوع يرجع الى حوالي خمسة الاف سنة ، ليس بالامر السهل .

فالحتم في الحقائق او الاستنتاجات الواردة في هذا المجال لا يمكن ان تثبت نهائيا . اذ ان الحقائق التي يعلنها المؤرخون اليوم والتي يعتمدها هذا البحث قد تتغير في المستقبل نتيجة للتحريات والتنقيبات المستمرة في هذا الحقل . لقد قال عالم اثـــرى " ان تحت كل حجر في بلاد ما بين النهرين يكمن سر عميق ". والعالم المخلـــص للحقيقة لا يسعه الا ان يلمح في قلب هذه الحجارة لتتكشف اسرار هذا الكائن العجيب - الانسان .

يقيننا ان ارثا حضاريا وثقافيا كالذى انتجته سومر يجب الا يبقى مغفلا ، خاصة من قبل المعنيين به قبل سواهم واملنا ان يكون في هذه الرسالة ما يثير المهتمين الى البحث والتنقيب في مآثر الماضي وقلب حجارة جديدة .

الفصـــل الاول

نظرة تاريخية عامة الى بلاد ما بين النهريـــن

منـذ نشوء الحضارة حتى اوائل

العهد البابلـــي

عـام ١٨٩٤ ق.م.

نظرة تاريخية عامة الى بلاد ما بين النهرين

منذ نشوء الحضارة حتى اوائل

العهد البابلي

عام ١٨٩٤

ق.م.

لا يمكن تحديد تاريخ بدء الحضارة في بلاد ما بين النهرين بالضبط. الا ان المصادر التي يستقي منها المؤرخون معلوماتهم عن هذا التاريخ تعود الى التعلمات البشرية الاولى حين ابتدأ الانسان اول ما ابتدأ يسجل معتقداته وطرائق حياته بوسائل مختلفة كالنحت والتصوير وصناعة الفخار، وابتدأ بالتالي، ينتقل من طور الاستكانة التامة والخضوع الى العوامل الطبيعية، الى طور التأثير في الطبيعة وتسجيل اثره فيها. ويمثل هذا الانتقال بدء التاريخ المسجل، وهو ما يقع تحت حصر الباحث في الوقت الحاضر.

هناك اجماع بين المؤرخين على ان القسم الشمالي من بلاد ما بين النهرين اى ما يقع شمالي بلدة "هيث" الحالية، كان مسكونا قبل القسم الجنوبي، بدليل العثور على بقايا العصر الحجرى القديم (Palaeolithic) والعصر الحجرى الحديث (Neolithic)، في مواقع جارمو وحسونة وسامراء وتل حلف، وهي مواقع في الشمال، وعدم العثور على مثلها في الجنوب[1]. وترجع البقايا التي عثر عليها في جارمو وهي اقدم مواقع الشمال، الى حوالي سنة ٤٧٥٠ ق.م.[2] وتعد هذه اقدم بقايا عثر

---

١. Woolley, Sir Charles Leonard, op.cit., p. 2.

٢. Braidwood, Robert J., The Near East and the Foundations for Civilization, Condon Lecture, Engene, Oregon, (1952), p. 26.

على اثار معاصرة لها في الجنوب تعرف بمرحلة تل حلف (Tel Halaf) ،وتمثل بقايا هذه المرحلة افضل ما عثر عليه من اثار في بلاد الرافدين حتى ذلك التاريخ .

التغيرات الجيولوجية في بلاد ما بين النهرين : يرجع سبب نزول السكان في المناطق الشمالية من بلاد الرافدين قبل نزولهم في المناطق الجنوبية الى التغيرات الجيولوجية الهامة التي حدثت في الوادى عبر حقبات طويلة من الزمن . ففي حين كانت جماعات من الاقوام تنزل مناطق الشمال كانت مناطق الجنوب لا تزال مغمورة بمياه الخليج الفارسي الى مسافة تقارب ال ٣٥٠ ميلا في داخل البلاد حاليا ، اى الى الشمال من بغداد [١] ولكن بفعل الطمي المستمر الذى يحمله نهرا دجلة والفرات كانت حدود الخليج ترتد الى الوراء تدريجيا حتى وصلت في اوائل الالف الرابع ق.م . الى مسافة ١٥٠ ميلا عما هي عليه الان ، بدليل ان الموانئ البحرية السومرية كمدينة اور تقع الان داخل الاراضي بما يقرب من هذه المسافة [٢] . ويرجع هذا الى ان نهر القارون في بلاد فارس كان يصب مياهه في شط العرب جارفا معه ترسبات ترابية كبيرة توازى ما يجرفه نهرا دجلة والفرات معا . ومن الجهة الثانية لشط العرب كان يجرى في وادى البطين نهر اخر قد جف الان غني بترسباته وعلى مر الايام نشأ سد من الترسبات عبر الخليج الفارسي من مصب نهر القارون حتى وادى البطين - اى عبر الخليج من الشرق الى الغرب - وتكونت من جراء ذلك بحيرة واسعة تمتد من هذا

---

١. Woolley, op.cit., p.2

٢. King, Leonard William, A History of Sumer & Akkad (London: Chatto & Windus, 1910),p.7

Easton, Stewart Copinger, The Heritage of the Past (New York: Rinehart & Co., New York; 1955), p. 78.

ويذكر فرنكفورت في هذا المصدر ان رأس الخليج الفارسي كان يقع الى مسافة ١٢٥ ميلا الى شمال البصرة .

السد باتجاه الشمال حتى بلدة " هيث " الحالية . وحين كانت مياه نهر القارون تدفق بالترسبات على هذا السد كانت مياه الرافدين توقف الترسبات الترابية الكبيرة من الانجراف وتضطرها على التجمع في هذه البحيرة الواسعة حتى اخذ ماؤها يضحل وتظهر فيها الجزر، الى ان جفت مياهها ، واصبحت الارض التي كانت قبلا امتدادا للخليج الفارسي ، مستنقعات واسعة تحولت على مرور الايام الى سهول زائدة الخصب .[١] (انظر الخارطة ص xiv)

نزوح الموجات البشرية الاولى الى بلاد ما بين النهرين :

كان الجزء الشمالي من الصحراء السورية واعالي وادى الرافدين مسكونا من قبائل تتكلم لغة سامية ، عرفت لاول مرة في التاريخ بالمارتو (Martu) وبعد ذلك بالامورو (Amurru) . وكان من الطبيعي ان يجذب خصب الارض الجديدة هذه القبائل التي راحت تتجه جنوبا سعيا وراء الارض الخصبة ، الى ان استقرت في المثلث الشمالي من هذه الارض ، الذى عرف بعد ذلك باكاد . وفي الوقت نفسه كانت قبائل اخرى تهبط من مرتفعات جبال زغروس وتتجه الى الجنوب ، ولكن عند التقائها بقبائل المارتو اضطرت الى التوقف ، واستقرت شمال اكاد فيما عرف بعد ذاك باشور .[٢]

---

١. Woolley, op.cit., pp. 2-4

٢. Ibid., p. 5.

في حدود ال ٤٠٠٠ ق.م.[١] نزلت في اقصى الجنوب على شواطئ الخليج الفارسي في الارض التي عرفت بعد ذلك بسومر ، اقوام تتكلم لغة ملصقة (Agglutinative) شبيهة بالتركية القديمة او المنغولية ، وصفت بشبهة قريب للاقوام الهند واوروبية ، كما عرفت بذوي الرؤوس السود . هذه الاقوام هي طلائع الموجات التي نزلت في الجنوب وعرفت بعد ازمان طويلة بالسومريين .

---

١. هناك اختلاف حول نزول الاقوام في سومر . فحين يقول برستد (Breasted, James Henry, Ancient Times (Boston:, New York, Ginn & Co. 1916),p.141).

ويوافقه روجرز . (Rogers, Robert William, A History of Babylonia & Assyria(New York: Abingdon press, 1915), p.2, 6th ed.).

بان السومريين نزلوا سهل شنعار (كما سميت سومر في التوراة) قبل الالف الرابع ق.م. يقول راندو

(Randau, Hugo, Early Babylonian History (New York: Oxford University press, 1899), p. 2.)

ان السومريين كانوا قد اتقنوا الكتابة قبل الالف الرابع ق.م. ويقول هيلبرخت ايضا (King, Leonard W., Chronicles concerning early Babylonian Kings. (London; Luzac & Co., 1907), p. 11 footnote).

ان الاثار السومرية تعود الى الالف السادس ق.م. والرأيان الاخيران اظهرت بطلانهما الحفريات الحديثة .

مصدر الاقوام السومرية : اما عن مصدر مجيء الاقوام التي نزلت في سومر ، فهناك اختلاف ايضا . ولكن الرأى المرجح حتى الان انهم نزلوا من المرتفعات الفارسية شرق دجلة ، بدليل ان الفخار الذى عثر عليه في اقدم موقع في سومر ، ويعرف "بتل العبيد" (Tel Obeid) عثر على ما يشابهه في بلدة سوزا واماكن اخرى من الجبال الفارسية [١] . كما ان كثيرا من علماء الآثار يستدلون من طريقة بناء المعابد السومرية في اماكن مرتفعة ، ان تلك الاقوام اعتادت العيش في المرتفعات الامر الذى يدعم الرأى القائل بنزولها من مرتفعات فارس [٢] .

مهما تكن الحال ، يكفي اهداف هذا البحث التأكيد على ان طلائع النشاط البشرى في سومر قد ابتدأت في حدود ال ٤٠٠٠ ق.م . بدليل العثور على اقدم آثار حضاريه ترجع الى ذلك العهد .

---

١. Frankfort, Henri, Archeology & The Sumerian Problem (Chicago; University of Chicago, 1932), p. 19.

Frankfort, Henri, The Birth of Civilization in the Near East (New York: Donbleday & Co., 1956), p. 43.

Childe, V. Gordon, New Light on the Most Ancient East (London: Rontledge, 1952), p.115.

Rogers, op.cit., p. 7 (footnote)

King, Chronicles Concerning Early Babylonian Kings (Introduction).

٢. ومنهم من يقول ان السومريين اتوا من الجنوب بواسطة مياه الخليج الفارسي ، او من الهند عن طريق بلاد فارس

(Rogers, op.cit., p. 7)(footnote)

Frankfort, Henri, The Birth of Civilization in the Near East, p. 56 (footnote).

تقسيم التاريخ السومري الى مراحل : لقد احس المؤرخون وعلماء الآثار بغموض تاريخ بلاد الرافدين القديم ، فتنادوا عام ١٩٢٩ الى مؤتمر عقد في بغداد وتم الاتفاق بينهم على تقسيم فترة ما قبل عهد سوجون الاكادي ، اي منذ بدء التاريخ السومري حتى اوائل عام ٢٥٠٠ ق.م. ، الى اربع مراحل متتالية ، اطلق على كل منها اسم الموقع الذي تم فيه اكتشاف الاثار الخاصة بتلك المرحلة . وقد اطلق على المرحلة الاولى اسم " تل العبيد " (Tel Obeid) وعلى المرحلة الثانية " اوروك " (Uruk) او "الورقاء " (Erech) والثالثة "جمدت نصر " والرابعة وهي الاخيرة "فجر السلالات الاولى "(Early Dynastic Periods) التي يأتي سوجون الاكادي في نهايتها .[١]

طور تل العبيد ٤٠٠٠ - ٣٤٠٠ ق.م. : في عام ١٩٢٢ تم اكتشاف اقدم موقع تاريخي في بلاد سومر في مكان يقع اربعة اميال الى الشمال من مدينة اور (Ur) ويعرف " بتل العبيد " . كما عثر على بقايا مماثلة لبقايا تل العبيد في مختلف انحاء العراق القديم ، شمالا وجنوبا مما يدل على ان حضارة تل العبيد هي اول حضارة شملت العراق كله ، وجاءت بعد حضارة حلف مباشرة ، وقد اقتصرت حضارة حلف على مناطق الشمال فقط . وتشير اثار تل العبيد التي عثر عليها في اريدو (Eridu) وسوزا (Susa) ، وسامراء (Samarra) ، والورقاء (Erech) ، الى انها آثار اول اقوام نزلت سومر بعد ما جفت الارض واصبحت صالحة للسكن ، بدليل مجيء هذه الاثار فوق الارض العذراء مباشرة .[٢]

---

١. Woolley, Excavations at Ur (London: Ernest Benn Limited, 1955), p. 15.

٢. Frankfort, Archeology & The Sumerian Problem, p. 18.

Frankfort, The Birth of Civilization in the Near East, p. 44.

تدل الاواني الخزفية التي عثر عليها في تل العبيد على سوية صناعية وفنية عالية لا تقل عن السوية التي بلغتها حضارة تل حلف ، غير ان العبيديين ، على ما يظهر ، قد قلت عنايتهم بجودة الصناعة في اواخر ايامهم ، وصاروا يهتمون اكثر بتنويع اشكال مصنوعاتهم بطرائق لم تعرف قبلا . وكانت الاواني الخزفية في هذه المرحلة تصنع باليد ، اذ لم يكونوا قد توصلوا الى استعمال دولاب الخزف ، وتتصف هذه الاواني بانها مزينة بلون واحد قوامه خطوط سوداء او سمراء او حمراء فاتحة على سطح الاناء ذي اللون الاخضر [١] .

ان اقوام تل العبيد هم اكثر مزارعي ما قبل التاريخ الجلي تقدما . فلقد استعملوا النحاس في البدء لصنع مختلف ادواتهم الزراعية ولكنهم مع تقدم الايام عزفوا عن استعماله واستعاضوا عنه بشوي الطين المتوفر بكثرة في السهل وصناعة الفؤوس والمناكش منه ، الامر الذي يدل على انهم جلبوا النحاس معهم من موطنهم الاصلي ، كما يدل على عدم اهتمامهم بالتجارة ، اذ انهم عزفوا عن استعماله بعد استقرارهم في سومر والا لكانوا استوردوا النحاس من الخارج واستمروا في استعماله . ولكنهم ، كما يظهر ، لم يهتموا بذلك اذ انهم كانوا شعبا زراعيا قبل كل شيء . ويدافع اهتمامهم بالزراعة وتعلقهم بالارض تمكنوا من ان يقيموا نظاما حضريا من الحياة ، يعتمد على القرية والمعبد كمحور لمختلف الاعمال . وقد عثر على اثار لا قدم المعابد فيما بين النهرين في موقعي اريدو في الجنوب وتبي جوارا (Tepe Gawara) في الشمال [٢] .

---

١ . باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة (بغداد : شركة التجارة والطباعة ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٥) ص. ٦٤ .

٢ . Frankfort, The Birth of Civilization in the Near East, p. 46.

ان اهمية موحلة تل العبيد الرئيسية هي في انها اول حضارة عمت بلاد مابين النهرين باجملها . والمرجح انها امتدت من الجنوب الى الشمال صعوداعلى جوانب الانهر .[١]

غير ان الامر الذى يختلف حوله المؤرخون هو فيما اذا كان يصح اعتبار العبيديين سومريين او لا يصح . ان عدم معرفة العبيديين للكتابة جعل المؤرخين في جهل للغة التي كانوا يستعملونها . ولكن من الناحية الاخرى ، فان بعض المؤرخين يرى في استمرار حضارة تل العبيد في المواحل التي تلت دليلا يصعب معه فصلها عن الحضارة السومرية ككل . ولكن بالرغم من هذا فان الرأى السائد بين المؤرخين حتى الان هو انه لا يمكن التأكيد على ان العبيديين هم اقوام سومرية ولهذا يفضلون دعوة موحلة تل العبيد بالموحلة الشبيهة بالسومرية (Proto-Sumerians) ، من قبيل الاحتياط .[٢]

---

١. Ibid., p. 48

٢. Childe, op.cit., p. 119 & 121.
Frankfort, Archeology & the Sumerian Problem, p. 70.
فرنكفورت في هذا المصدر هو احد الذين يصرون على وصف اقوام تل العبيد بالسومريين بداعي استمرار حضارتهم في الازمان التي تلت ، ويستند في ذلك على اكتشاف " لجوردن " احد علماء الآثار الالمان ، لاحد نماذج الاشخاص من موحلة تل العبيد يمتاز بنفس الخصائص الوجهية التي امتاز بها السومريون : كحلق الشفة العليا ، واطلاق اللحية ، وعقد الشعر في مؤخرة الرأس . غير ان تثبيت سوميريتهم لم تعد موضع اصرار كبير من قبل فرنكفورت في كتابه الاخير The Birth of Civilization in the Near East (footnote, p. 51) حيث يقول ان تتبع اصل السومريين هو كتتبع السراب .

طور اوروك (الورقاء) ٣٤٠٠ — ٣٢٠٠ ق.م. : فوق طبقة تل العبيد مباشرة عثر في اور وسوزا والورقاء على بقايا من الفخار تختلف عن بقايا المرحلة السابقة[١] . والفرق الكبير بين بقايا المرحلتين هو ان فخار مرحلة الورقاء مصنوع بواسطة الدولاب بينما كان في المراحل السابقة يصنع باليد . كما انه اصبح يطلى باللون الرمادى والاحمر وتصنع له مسكات.[٢] الى جانب هذا فقد تطور فن الهندسة تطورا واسعا في هذا العهد . وبالرغم من حفاظ الاوروكيين على النمط العبيدى في البناء ، الا انهم ابتدأوا يستعملون اللبن — القرميد غير المشوى — الذى انتشر في جميع انحاء البلاد . وقد كانت البيوت قبلا عبارة عن اكواخ من القصب المطلي بالطين.[٣] في هذا الطور اتسعت القرى (Villages) الزراعية الصغيرة لتصبح بلدات (Towns) .

غير ان الحدث الهام الذى يميز هذه المرحلة عن سابقاتها ، هو ظهور الكتابة . فقد عثر على اولى الواح الطين تحمل بعض النقوش والصور غير الصوتية (Pictographic) ، كما عثر على الواح اخرى ترجع الى الحقبة الاخيرة من هذا الطور تحمل رموزا للكتابة الفكرية او الرمزية (Ideographic)[٤] . وقد توصلت الكتابة في اواخر هذا الطور الى بداية المرحلة الصوتية (Phonetic) . والمرجح ان لقيام المعابد وانتشار الطقوس الدينية بشكل واسع فضلا اساسيا في نشوء الكتابة في مرحلة الورقاء .

---

١. Childe, op.cit., p. 16

٢. Ibid., p. 123

٣. Frankfort, Archeology & The Sumerian Problem, p. 17.

٤. Childe, op.cit., p. 128

بالاضافة الى هذا فقد انتج فنانو هذه المرحلة نماذج جميلة من المنحوتات الحجرية تعد اقدم انواع النحت في تاريخ الفن . كما تم اختراع الختم الاسطواني (Cylindrical seal) الذى كان يعد اداة ضرورية للاشخاص ذوى المكانة الموموقة بينما كان الختم المنبسط (Flat) يستعمل من قبل .[١]

حدثت هذه التغيرات بين موحلتي تل العبيد واوروك بصورة تدريجية ، اذ ان خصائص المرحلة الاولى لم تنقرض كليا في المرحلة الثانية . ومن المرجح ان هذا التغير جاء نتيجة لنزوح موجات جديدة من الشمال حاملة معها بعض خصائصها الحضارية .[٢] وقد ساد الاعتقاد سابقا بان مصدر هذه الموجات هو شمال الساحل الفنيقي وفلسطين بدليل العثور على اشكال من الفخار مشابهة لفخار مرحلة اوروك في هذه المناطق .[٣] الا انه من المرجح حاليا ان مصدرها بلاد الاناضول ، وان سكان فلسطين وفينيقيا الشمالية قد اخذوا طريقة صنع الفخار وتعلموا طلاءه بالالوان الحمراء والرمادية ، الخاصة باوروك ، من الاوروكيين ، وليس العكس .[٤]

طور جمدت نصر ٣٢٠٠ — ٣٠٠٠ ق.م . : تختلف بقايا الفخار التي عثر عليها في جمدت نصر واور وكيش والورقاء وفارا والتي ترجع الى هذا العهد عن بقايا المرحلة السابقة بانها متعددة الالوان (Polychrome) ، ويغلب عليها اللون الاحمر القرمزى . وقد تفنن الناس في هذا العهد بصنع اواني الحجر الجميلة اذ كانوا

---

١ . باقر ، طه ، نفس المصدر السابق ، ص ٦٩ .

٢ . Woolley, Excavations at Ur, p. 37.

٣ . Childe, op.cit., p. 124.

٤ . هذا الرأى للدكتور ديمتوى برامكي — من مقابلة شفهية معه .

يزينون خارجها باحجار جميلة على اشكال بديعة .[١]

من المرجح ان تغيرا هاما قد حصل في معتقدات القوم في هذا العهد بدليل العثور على بقايا الاموات في طور جمدت نصر بوضع قريب من وضع الطفل عندما يولد ، "كما يخرج من بطن امه هكذا يخرج من هذا العالم . " كان الميت قبلا يوضع على جنبه ، وترفع ركبتاه حتى تقربا من ذقنه ، وتطوى رجلاه حتى تلتصقا بمؤخرته ، وتضم يداه وترفعان الى اخمص ذقنه ، وغالبا ما يوضع بين يديه وعاء كالذى كان يستعمل لصب الزيت المقدس في الهياكل .[٢] ومن المعقول ان يكون سبب هذا التغير نزول موجات بشرية اخرى في البلاد .

في هذه المرحلة تمكن المعدنون من فصل الفضة عن الرصاص ،[٣] والمرجح انهم عرفوا البرونز ايضا . وشاع استعمال المعادن شيوعا واسعا ، كما انتشر استعمال الخواتم الاسطوانية المنقوشة بصفوف من الحيوانات والاسماك والطيور . كما تحسن فن النحت والعمارة تحسنا كبيرا . واما في الكتابة فقد اختزل في عدد العلامات المسمارية ، التي اخترعت في النصف الثاني من طور الورقاء ، من ٢٠٠٠ علامة الى نحو ٨٠٠ ، ثم الى ٦٠٠ علامة في الاطوار التالية .[٤] وكذلك توضح استعمال الطريقة الصوتيه .

---

١. باقر ، طه ، نفس المصدر السابق ، ص ٧١ .

٢. Woolley, Excavations at Ur, p. 42.

٣. Childe, Op. Cit., p. 135.

٤. Frankfort, Archeology & the Sumerian Problem, p. 15.
باقر ، طه ، نفس المصدر السابق ، ص ٧٢ .

يسمى القسم الثاني من طور الورقاء وطور جمدت نصر الذى تلاه بالعهد الشبيه بالكتابي (Proto-Literate) ،ذلك لانه تم في هذا العهد ادخال الكتابة وتنميتها ولهذا يعتبر العهد الشبيه بالكتابي ، بالنسبة الى الحضارة السومرية ،العهد التكويني (Formative Age) اوعهد ارساء القواعد التي قامت عليها الحضارة السومرية .

اتفق المؤرخون على تسمية الاطوار الثلاثة ، العبيد ،واوروك ، وجمدت نصر ، بالعهد السابق للسلالات (Pre-Dynastic)، او السابق للتاريخ الجلي . وتلت ذلك عصور فجر السلالات التي تمتد من نهاية طور جمدت نصر حتى قيام السلالة الاكادية ، في منتصف الالف الثالث ق.م .

عصور فجر السلالات (٣٠٠٠ - ٢٤٠٠ ق.م) : تقسم هذه العصور الى ثلاثة اطوار حضارية يطلق عليها اسم عصر فجر السلالات الاول والثاني والثالث بحسب تسلسلها الزمني . وتعتبر الحضارة التي نشأت وتوعرعت في هذه العصور اساسا لجميع الحضارات الاخرى التي نشأت في بلاد الرافدين فيما بعد ،وفي مختلف انحاء الشرق الادنى . وتمتاز حضارة هذه المرحلة عن سابقاتها ، باختلاف واضح في طريقة البناء ، اذ شاع فيها استعمال قطعة اللبن المقعرة بدل القطعة المسطحة المستطيلة التي كانت شائعة قبلا . كما ان القرميدة اصبحت توضع بشكل منحن ،كل قرميده تعاكس في انحنائها الاخرى لا بشكل مسطح كما كان شائعا من قبل . ويعتقد ان هذه الطريقة قد دخلت مع اقوام سبق لها استعمال الحجر في البناء [١] .

الطور الاول من عصور فجر السلالات يمتد من ٣٠٠٠ الى ٢٨٠٠ ق.م . ويأتي

---

١. Childe, op.cit., p. 148.
Woolley, Excavations at Ur, p. 48.

بعد عصر جمدت نصر مباشرة . ويعتبره بعض الباحثين فترة انتقال من العصر السابق الى العصور التي تلته . ومع ذلك فقد جائتنا من هذا الطور آثار مميزة ، مثل الاختام الاسطوانية المنقوشة بزخارف تشبه زخارف النسيج ، ووجدت معابد مهمة في منطقة ديالي في تل اسمر ترجع الى هذا العهد ، كما تميز فخار هذه المرحلة بالطلاء باللون الاحمر [١] .

لعل ابرز ما جاءنا من طور فجر السلالات الثاني ٢٨٠٠ - ٢٦٠٠ ق.م. المنحوتات الجميلة المجسمة التي وجدت في تل اسمر وتل اجرب وخفاجي ، وهي عبارة عن اصنام وتماثيل منحوتة نحتا مجسما يشير الى ازدهار الحضارة والفن وبلوغهما درجة عالية من الرقي . ويلاحظ ان فن النحت في هذه الفترة كان يميل الى المسحة الهندسية التكعيبية (Geometric) ، وقد وجدت اولى القصور الملكية ، التي ترجع الى هذا الطور ، كالقصر الذى وجد في كيش واريدو [٢] .

اما فيما يتعلق بالطور الثالث من فجر السلالات ٢٦٠٠ = ٢٤٠٠ ق.م. فقد زودتنا المقبرة الملكية الشهيرة التي عثر عليها في اور عام ١٩٢٢ [٣] ، بمعلومات كثيرة عن خصائصه . وهذه المقابر مبنية تحت الارض ومسقوفة بعقود بعضها من الرخام [٤] . ويدل ذلك على معرفة السومريين للبناء بالعقد قبل الرومان بازمان طويلة . وقد تقدم فن التعدين وسبك المعادن والصياغة تقدما باهرا في هذا الطور ، وتوصل المعدنون الى استعمال البرونز الذى يحوى من ستة الى عشرة بالمئة من التنك [٥] .

---

١. باقر ، طه ، نفس المصدر السابق ، ص. ٨٢ .

٢. Childe, op.cit., p. 154

٣. الذى قام بالتنقيب في هذه المقبرة هو السير ليونارد دولي .

٤. Childe, op.cit., p. 151.

٥. Ibid., p. 157

التطور التاريخي بعد عصور فجر السلالات :

طور دول المدن : اثناء عصور فجر السلالات كانت بلاد سومر واكاد تتبع نظام دول المدن (City States) . فاحيانا تقوم مدينة كيش وتبسط سيادتها على باقي المدن واحيانا تقع كيش تحت سيطرة مدينة اخرى كالورقاء او لجش او اور ويقوم عهد جديد لمدن جديدة . وكانت هذه المشاحنات بين المدن توافق ازدياد السكان في السهل وتعقد اعمال الرى والشؤون العامة . فكانت كل مدينة تهدف الى السيطرة على جميع المدن الاخرى بغية تأمين افضل نصيب من المياه والاراضي . وفي كل مرة تبسط احدى المدن سلطانها على بقية المدن ، تتخذ السلالة الحاكمة اسم المدينة المنتصرة اسما لسلالتها .

في جداول الملوك التي عثر عليها [1] ، هناك اشارة الى انه بعد الطوفان ، اى حوالى ٣٠٠٠ ق.م . " هبطت الملكية من السماء وحلت في مدينة كيش ". ومن كيش انتقلت الملكية الى مدينة الورقاء و جلقامش (Gilgamesh) هو احد ملوكها ، ومنها انتقلت الى اور ، وكان هذا بدء سلالة اور الاولى بقيادة آني - بادا (A-Anni-Padda) حوالي ٢٦٠٠ ق.م . وفي الوقت نفسه نشأت في مدينة لجش (Lagash) سلالة بدأت حكمها حوالي ٢٥٠٠ ق.م . وقد حملت لجش لواء الحضارة السومرية فترة طويلة من الزمن ، خاصة في عهد مؤسس سلالة لجش اورنانشه (Ur-Nanshe) (وكان يدعى قبلا اورنينا (Ur-Nina) ، الذى ثار ضد اور ، كما يظهر ، وانتزع السيادة منها . بعد اورنانشة تسنم العرش اكورجال (Akurgal) ، وقد خلفه اياناتم (Eannatum) الذى اقام الحروب الطويلة مع غريمة لجش التقليدية

---

١. Woolley, The Sumerians, p. 21.

مدينة اوما (Umma) [1]. وبعده ياتي اوروكاغينا (Uru-Kagina) ٢٦٤٠ ق.م. الذى كان حاكما عادلا ومستقيما . ولكن بعد موته ثارت مدينة اوما بقيادة لوجالزاجيسي (Lugalzaggisi) ٢٤٥٣ - ٢٤٢٥ ق.م. الذى استطاع ان يضع حدا لسلطان مدينة لجش . ولكن لوجالزاجيسي اتخذ مدينة الورقاء عاصمة لحكمه بدلا من مدينته الاصلية اوما . وقد اشتهر حكمه بالرخاء والازدهار [2]، اذ اقام العدالة بين السكان وقام بالاصلاحات المتعددة . ويعتبر حكم لوجالزاجيسي نهاية عصور فجر السلالات .

طور الممالك الموحدة : حين كانت مدن الجنوب تتنازع السلطات فيما بينها كانت قبائل الشمال التي عرفت بالاكاديين تتكاثر وتقوى ساعدها الى ان ظهر سرجون الاكادى (Sargon of Accad) ٢٤٠٠ - ٢٣٤٥ ق.م. فبسط سيطرته على سومر واكاد كلها ووحد مدنها المتنازعة ودعا نفسه بلقب جديد هو ملك سومر واكاد . وبقيام سرجون انتهى عهد دول المدن وابتدأ عهد الممالك الموحدة .

كان لمجيء سرجون الى الحكم اهمية كبيرة ليس في تاريخ سومر وحسب وانما في تاريخ بلاد الرافدين باجمعها ، حتى ان كل العصور السابقة لحكمه اصبحت تعرف بعصور ما قبل سرجون (Pre-Sargonic Periods) والاهمية الخاصة لعهد سرجون الى جانب اهميته كحدث سياسي ، هي ان اسياد سومر حتى ذلك التاريخ كانوا من السومريين الصرف ، ولكن بعد عصر سرجون اختلط العنصران السومرى والاكادى ، الاول غير سامي والثاني سامي . وبهذا الامتزاج ينتهي عصر السيادة السومرية الصرفة ويبتدئ في بلاد الرافدين تاريخ جديد يرتكز الى مزيج من الشعبين .

---

١. King, op.cit., p. 129

٢. Ibid., p. 191

يلي سرجون في الاهمية بين الملوك الاكاديين نارام سن (Naram-Sin) ٢٢٢٠ - ٢٢٨٠ ق.م. الذى اشتهر بالفتوحات الخارجية الواسعة ، وخلد فتوحاته في نصب تذكارى يعرف بنصب النصر (Steele of Vulture) ، ودعا نفسه " ملك الجهات الاربع " . وبعد وفاته خلفه ابنه شاركاليشارى (Shargalisharri) الذى كان حاكما ضعيفا ، قامت الثورات في عهده واجتاحت قبائل الكوط (Guti) مملكته وحطمت وحدة البلاد السياسية .

اهم نتائج الحكم الاكادى في بلاد الرافدين هي توحيد اساليب الحياة في تلك المنطقة . فالمسالك احدى الطرق التجارية ، في ذلك العهد ، من جنوب الاناضول الى سورية ، الى التقاء الخابور بنهر الفرات ، ثم الى اشور في اعالي الدجلة ، والمتجه بعد ذلك الى مدينة مارى وجنوبا مع الفرات الى موطن الحضارة السومرية يجد ان المدن التي يمر بها تشترك جميعها بوحدة في مظاهر الحضارة الاساسية ، في الفن والعمارة واللغة والكتابة .[1] ويعود ذلك الى امتداد الفتوحات في العهد الاكادى وانتشار الحضارة في مناطق متباعدة من البلاد .

في اواخر العهد الاكادى ومع اجتياح قبائل الكوط بين سنة ٢٢٥٠ و ٢١٥٠ ق.م. ابتدأ عهد تضعضع السيادة الاكادية . اذ تمكن الكوطيون ، نتيجة لضعف خلفاء نارام سين من الملوك الاكاديين ، من ان يقيموا لهم عرشا في ما بين النهرين . وقد اشتهرت الفترة التي حكمت فيها هذه القبائل بالاضطراب والفوضى في شؤون الحكم واشتهر القول ، " من هو الملك ومن هو غير الملك ؟ "[2] دلالة على اختلاط امور الحكم وفقدان هيبة الحكام .

---

١. باقر ، طه ، نفس المصدر السابق ، ص. ١٢٨ .

٢. باقر ، طه ، نفس المصدر السابق ، ص. ١٢٩ . وكذلك وولي في كتابة ، السومريون . لائحة الملوك في الصفحة ٢٤ .

غير انه في نهاية عهد هذه القبائل كانت مدينة لجش تستعيد سلطانها مجددا على يدى حاكم يدعى جوديا (Gudea) ٢١٥٠ - ٢١٢٠ ق.م. وقد كان جوديا حاكما تقيا ورعا مثاله الاعلى النظام والقانون وحماية الضعفاء . وقد دعا نفسه كاهن لجش بدلا من مليكها . واعتبر عهده عهد لجش الذهبي .

بعد وفاة جوديا انتقلت السيادة الى مدينة اور على يدى مؤسس سلالة اور الثالثة اورنامو (Ur-Nammu) ٢١٢٠ = ٢١٠٠ ق.م. الذى بسط سيطرته على بقية البلاد ونصب ابنه كاهنا اعلى لمدينة الورقاء ، ونصب حاكما اخرا لمدينة لجش ،وشق القنوات وبنى المعابد واصلح في النظم والقوانين وحصن مدينة اور بالاسوار العالية فبدت كالجبال الصفر " وبنى الهيكل الشهير المعروف " بالزيغورات" (Ziggurat) الذى اطلق عليه اسم " جبل السماء " ،ويذكر السير ليونارد وولي انه لم يكن في كل البناء خط مستقيم واحد ،بل كانت جدرانه كلها مصممة بطريقة هندسية دقيقة تظهر البناء كله وكأنه قطعة من جبل[1].

خلف اورنامو على عرش اور ابنه دونجي (Dungi) (٢١٠٠ - ٢٠٤٠ ق.م.) الذى اشتهر باعماله الاصلاحية كمد الاقنية وترميم المعابد ،كما اشتهر بمقدرته العسكرية . وفي عهد دونجي عادت الحضارة السومرية ،بعد طغيان الموجات السامية عليها ،الى سابق ازدهارها . ولكن بعد موته لم يستطع احد من الحكام الذين خلفوه ان يحافظ على وحدة البلاد وقوتها ، بينما كانت مملكة العيلاميين في سهل ايران تشتد ويقوى ساعدها حتى تمكنت من اجتياح البلاد واسر اخر حكام سلالة اور الثالثة ابي سين (Abi Sin)

---

١. Woolley, Excavations at Ur, p. 125.

وانتقلت بذلك السلطة من اور الى مدينتي اسين (Isin) ولارسا (Larsa) الاولى مدينة سامية والثانية عيلامية . احد ملوك سلالة اسين هو لبت عشتار (Lippit-Ishtar) الذى اشتهر بقانونه . وبعد لبت عشتار يتوالى على العرش عدة ملوك لم يشتهر منهم احد في حين كانت مدينة بابل في الشمال تبرز الى الوجود ويشتد ساعدها .

في عهد اسين ولارسا دخلت بلاد الرافدين موجات سامية جديدة من الغرب ، من شمال سورية وفلسطين . وقد عرفت هذه الموجات بالاموريين الذين استطاعوا مع مرور الايام ، ان يقيموا لانفسهم عرشا في بابل ، في حين كان عرشا اسين ولارسا يضعفان ويندثران . وبقيام بابل تخلق اخر صفحة من تاريخ سومر واكاد السياسي لتقوم على انقاضها مملكة واسعة الارجاء في الشمال ، هي مملكة بابل ، في حدود العام ١٨٩٤ ق.م .

بالرغم من اندثار سلطان سومر واكاد السياسي فان التراث الحضارى الذى نشأ وترعرع في العهد السومرى والاكادى بقى الاساس الذى استمدت منه الحضارات التي تلت وخاصة الحضارة البابلية ، كيانها ومعناها ، ولا نظننا مغالين ان قلنا ان الحضارة البابلية لم تكن الا صورة مكبرة عن الحضارة السومرية = الاكادية مع اضافة لون جديد هنا ، وتعميق لون اخر هناك ولكنها في كيانها العام لم تخرج عن الاطار الحضارى الذى حددته سومر . بهذا المعنى يصح القول ان سومر قهرت قاهريها .

الفصـــل الثانـــي

أ ـ الحياة الاجتماعيـة في سومـــر

ب ـ الحياة الاقتصادية في سومـــر

جـ ـ الحياة السياسية في سومـــر

مظاهـر الحياة السـومرية

بعد هذا الاستعراض الموجز السريع للتاريخ السومرى والتتبع لنشـوء السومريين وانتقالهم من مرحلة تاريخية الى مرحلة اخرى ، يجدر بنا ان ندخل فـي بحث مظاهر الحياة السومرية عن طريق دراسة المؤسسات الاجتماعية والاقتصاديـة والسياسية التي نشأت بينهم ، وطرائق الحياة التي اتبعوها منذ فجر التاريخ حتى العهد البابلي . وسنبدأ هذا الفصل بدراسة الوجهة الاجتماعية من الحيـاة السومريـة .

أ ـ الحياة الاجتماعية في سومر

بانتقال الانسان في شمال العراق من العصور الحجرية القديمة (Palaeolithic) حين كان يعتمد على الصيد ويتنقل من مكان الى مكان بقصد جمع الطعام ، الى العصور الحجرية الحديثة حين استقر على الارض وامتهن الزراعة ، ابتدأت حياته تتطـور وفق هذا التغير الجوهرى ، واخذ ارتباطه بغيره من الناس ، خاصة بافراد عائلتـه يقوى ويمتد بدافع احساسه باشتراكهم معه في المصلحة والمصير . وينتج هـذا الاحساس عادة عند نشوء حس الملكية (Ownership) الذى يرافق الاستقـرار والعمل الزراعي في الارض باعتبار حاجة المالك الى ورثة يرثون عنه الارض التي امتلكهـا وزرعها واستغلها .

غير ان التاريخ يخبرنا بان الانسان في سومر لم يمر بمراحل العصور الحجرية الاولى بدليل عدم العثور على بقايا توجـع الـى هذه العصور في القسم الجنوبـي

من بلاد ما بين النهرين ، بينما عثر على مثلها في الشمال . ويخبرنا التاريخ ايضا ان سكان الجنوب كانوا يتدرجون جنوبا ويمتدون باتجاه الاراضي الجديدة الخصبة التي كانت تنشأ من تراجع البحر بفعل الطمي المتزايد والترسبات التي يجرفها الرافدان ، وان الاقوام التي نزلت تلك الاراضي اتخذت الزراعة مهنة لها فور استقرارها على الارض ، اى انها دخلت في الطور الحضارى الثاني الذى يلي طور جمع الطعام ، وهو طور صنع الطعام او تحضيره ، ويعني هذا ، من الناحية الاجتماعية ، ان هذه الاقوام لا بد كانت تتميز بروابط اجتماعية هي على الغالب ، روابط عائلية . ان الحس العائلي يبرز في تاريخ سومر كاقدم مظهر اجتماعي عرفته تلك البقعة من بلاد الرافدين.

على مر الايام وتنوع نشاطات الانسان في جنوب بلاد ما بين النهرين ، اخذ الحس العائلي يعمق ويمتد من الدائرة الصغرى ، العائلة ، الى دوائر اكبر منها ، القرية (Village) ثم البلدة (Town) ثم المدينة (City) . والقرية هي مظهر اجتماعي يقوم على الزراعة فقط ، بينما البلده هي مظهر زراعي — صناعي واما المدينة فهي مظهر صناعي صرف . وقد عرف جنوب ما بين النهرين المظهر الاول في العصور السابقة لطور اوروك ، بينما عرفت البلدة في عصر اوروك والمدينة في عصر فجر السلالات وما بعده .

ان انتقال الانسان من الشعور بارتباطه ليس بافراد عائلته وحسب وانما بافراد قريته او بلدته او مدينته يمكن التعبير عنه بشكل اخر هو انتقاله من الارتباط بوشائج القربى الدموية ، التي قوامها العائلة او العشيرة ، الى الارتباط بوشائج مكانية قوامها ، القرية او البلدة او المدينة . وفي هذا الانتقال تطور اجتماعي بالغ الاهمية ، ذلك لانه بتأمين الاطار المكاني لنشاط السكان اخذت حضارتهم تتطور بصورة فعالة اكثر من قبل .

يمكننا ان نقدم مثلا على ما نعني ، بنشوء الشرائع . فالشرائع لم يمكن ان تنشأ في ما بين النهرين في الحالة الاولى ولا يعقل ان تنشأ . ذلك لأن الاختلاف بين افراد العائلة على ارض او ممتلكات يكون نادر الوقوع بحكم تركيب العائلة وتواثقها معا بروابط دموية ، وتولي احد الكبار فيها مقام الرئاسة . ويكون هذا الكبير من الناحية المبدأية ، هو مالك الارض وكل ما يتصرف به افراد العائلة بينما يقوم افراد العائلة بالتصرف بالاملاك وكانها ملك لهم . وانما مثل هذه الاختلافات تنشأ بعد تكاثر الناس وتشابك مصالحهم بعضهم مع البعض واستقرارهم في مكان معين بحيث يحتاج كل فرد الى تحديد حقوقه وواجباته في علاقاته مع الاخرين . وهذه امور ترافق نشوء القرى او البلدات او المدن.

على ان هذا لا يعني اغفال ما للعائلة من اهمية في النشاط الاجتماعي. والواقع ان العائلة في جنوب بلاد ما بين النهرين برزت ، منذ البدء ، كمحور اجتماعي رئيسي تفرعت عنه نشاطات الناس وعلاقاتهم الاجتماعية الاخرى . وتظهر اهمية العائلة في كثرة النصوص المتعلقة بها في شرائعهم . ويظهر من هذه النصوص انها تميل في كل ما يختص بالارث وتوزيع الحصص الى التأكيد على وحدة العائلة وتراص اعضائها ، كما كانت حقوق الافراد تقرر بشكل يجعل وحدة العائلة مؤمنة وبقاء افرادها معا قائما قدر الممكن . يتضح هذا من المادة التاسعة والخمسين من قانون مملكة "اشنونا" التي تنص على ما يلي :

" اذا طلق رجل زوجته بعد ان تكون قد انجبت له اولادا ، وتزوج امرأة اخرى فيجب ان يطرد من بيته ومن كل ما يملك ، وبامكانه بعدها ان يلحق بامرأته الثانية ". [1] واذا عرفنا مقدار مكانة الرجل في العائلة آنذاك يتضح لنا ان طرد رأس

---

١. Goetze, Albert, "The Laws of Eshnuna", Ancient Near Eastern Texts (Princeton: Princeton University Press, 1950), p. 162)

العائلة خارج البيت كان عقابا صارما مقابل الحفاظ على وحدة العائلة .

بين المواد المتعلقة بتحديد حقوق كل من افراد العائلة من الميراث ، وردت هذه المادة من قانون لبت عشتار" .

المادة الرابعة والعشرون : " اذا تزوج رجل زوجة ثانية وانجب منها اولادا ، فان المهر الذى جلبته من بيت ابيها هو من حق اولادها واما اولاد زوجته الاولى واولاد زوجته الثانية فانهم يتقاسمون ميراث الاب بالتساوى ."[1] وقد بلغ الشعور بالإرتباط العائلي درجة عالية حتى ان ما يعرف اليوم بحق الشفعة اى افضلية القريب باملاك قريبه اذا ما اراد ان يبيعها ، كان معروفا لدى السومريين ، كما يظهر من المادة الثامنة والثلاثين من قانون مملكة اشنونا :

"اذا اراد اخ من بين الاخوة ان يبيع حصته من الارث وكان احد الاخوة راغبا في شرائها فبوسعه ان يدفع الثمن بمقدار .... "[2]

اما الزواج فكان يقوم على مبدأ الزوجة الواحدة (Monogamy) من الوجهة النظرية على الاقل . ومع ان العادة كانت ان يتخذ الرجل له سوائر الى جانب زوجته الشرعية ، فان مكانة الزوجة الاولى كانت تظل محفوظة في المجتمع[3] . وفي حالة اصابة الزوجة بمرض خاص يتعذر معه قيامها باعباء الحياة الزوجية

---

١. Kramer, S.N., "Lipit-Ishtar Lawcode" A.N.E.T., p. 160, Pritchard (ed).

٢. الرقيم مكسور . ولكن برتشرد يعلق (Pritchard, p.163) على هذه المادة ان ما تبقى منها كان يعطي الافضلية للاخ . واكمل الدكتور صلاح الدين الناهي المادة بقوله " بمقدار نصف ما يدفعه الاجنبي " ، مجلة سومر (كانون الثاني ١٩٤٩) ، المجلد الخامس .

٣. Woolley, The Sumerians, p. 100

كانت الشريعة تسمح باتخاذ زوجة شرعية اخرى . وكانت مراسيم الزواج تجرى بموجب عقد خطي يعترف به الرجل امام الشهود بحقوق عروسه وواجباتها ،ويعلن امام الشهود "انها زوجتي" . واما قبل الزواج فتبقى الفتاة تحت حماية والدها الذى كان طليق التصرف بزواج ابنته ،حتى ولو كانت رهينة لقاء دين عند شخص اخر ،اذ انها فيما يتعلق بامور الزواج مهما كانت حالتها فانها كانت تخضع لرأى والدها او اخيها الاكبر اذا كان والدها متوف.[1]

الخطوة الاولى في عملية الزواج كانت الخطبة ،وكما هي العادة حتى اليوم في العراق سواء من البلدان العربية ،تبدأ الخطبة بتقديم هدايا للعروس . وكانت الخطبة جزءا هاما من الزواج ،اذ تعتبر الفتاة منذ تاريخ الخطبة عضوا في عائلة خطيبها حتى اذا مات كان عليها ان تتزوج احد اخوته او اقاربه . وفي حالة عدم وجود اقارب له كان عليها ان ترجع الهدايا لاهله .[2] وتقتصر معاملة عقد الزواج على كتابة وختم اللوحة التي كان يذكر فيها مقدار المال المنقول مع الزوجة ونوع العقاب الذى يحق للرجل ان ينزله بالمرأة في حالة الخيانة الزوجية ،وبقية الشروط التي يتم الاتفاق عليها .[3]

واما الاموال التي كانت تذكر في عقد الزواج فكانت على ثلاثة انواع يسمى احدها " ترخاتو " يدفعه الزوج الى اسرة الزوجة وهذا هو المهر ،وهو ملك خاص بالزوجة ويرثه ابناؤها . والثاني مبلغ من المال تهديه عائلة الزوجة ويسمى " شيريقتو " ، وقد جرت العادة ان يكون هذا المبلغ وديعة عند الرجل لزوجته يجوز ان يتصرف به

---

١. Contenou, Georges, Every Day Life in Babylonia & Assyria (London: Edward Arnold Ltd., 1954), p. 15.

٢. Ibid., p. 15.

٣. Woolley, The Sumerians, p. 100.

ولكنه ملك للزوجة يرثه ابناؤها او اهلها ان لم يكن لها اولاد ويرجع الى الزوجة في حالة الطلاق. والمبلغ الثالث كان يعتبر بمثابة هدية من الزوج الى الزوجة ويدعي بالهبة او العطية.[١]

بالاضافة الى هذا كان يذكر في عقد الزواج ان الديون المترتبة على الزوج قبل الزواج هي من مسؤوليته وحده ولا علاقة للمرأة بها الا في حالة رضاها بذلك. واما الديون التي تترتب عليهما بعد الزواج فكانت من مسؤولية الزوجين معا[٢] ومن الملاحظ انه على الرغم من سلطان الزوج المطلق على الزوجة، فقد حفظت الشريعة كثيرا من حقوق المرأة. ففي حالة الطلاق الكيفي كان الرجل في اغلب الاحوال ملزما بدفع النفقة الى مطلقته[٣]، كما ان الشريعة ضمنت حريتها الاقتصادية، اذ كان باستطاعتها ان تحتفظ بعبيدها الخاصين وان تقوم بالاعمال التجارية على حسابها الخاص[٤] وان تقدم الشهادة في المحكمة، وفي حال غياب زوجها كانت تدير املاكه، الا في حالة كون احد ابنائه الراشدين حيا. وفي حالة موت زوجها كان نصيبها من الميراث موازيا لحصة ولد من اولاده، وقد كفلت لها الشريعة حق الزواج بعد وفاة زوجها، وباستطاعتها عند الزواج ان تأخذ مهرها الذي جلبته معها من بيت ابيها منذ زواجها بوجلها المتوفي ولكن عليها في هذه الحالة ان تترك حصتها من الاملاك التي ورثتها من زوجها السابق.[٥]

---

١. باقر، طه، نفس المصدر السابق، ص. ٤٠٨

٢. Woolley, The Sumerians, p. 101

٣. باقر، طه، نفس المصدر السابق، ص. ٤٠٩

٤. Durant, Will James, Our Oriental Heritage (New York: Simon, 1942), p. 248.

٥. Woolley, The Sumerians, p. 102.

واما فيما يتعلق بموكزها في العائلة فلقد كانت تتمتع بسلطة موازية لسلطة الرجل على اولاده ، اذ كان باستطاعتها ان تحرم من الميراث من لا يكون مخلصا من الاولاد وان تطرده من المدينة ، تماما كما يفعل الاب . ولكنها كانت ضعيفة بالنسبة لامور معينة ، منها ان باستطاعة الرجل اذا احتاج للمال ان يرهن زوجته كعبدة لمدة معينة ، كما كان باستطاعته ان يطلقها لاسباب واهية (ما لم يذكر ذلك في عقد الزواج) . اما الخيانة الزوجية فكانت تعاقب بقساوة تزداد صرامة كلما تقدمت الايام حتى وصلت في ايام سلالة اور الثالثة الى اغراق الزوجة الخائنة بمياه النهر . واما المرأة العاقر فكانت اما تطلق او تحرم من حقوقها الزوجية . وفي الحالة الاولى كانت تستوجع مهرها وشيئا من المال كتعويض لها . وفي حالة رفضها الطلاق مع كونها عاقرا ، كان يحق للرجل ان يتزوج امرأة ثانية ، ولكن يظل مجبرا على القيام بواجب الزوجة الاولى . والفرق كان ان الزوجة الثانية تعتبر زوجة شرعية في هذه الحالة . والملاحظ ، بشكل عام ان قيمة المرأة كزوجة كانت اقل من قيمتها كأم ، لدرجة انه حين يكون العقم ناتجا عن ممانعة الزوجة في الاتصال بزوجها ، لا عن ضعف جسماني ، كان يعتبر هذا جرما موازيا لجرم الخيانة الزوجية والعقاب عليه كان الغرق في الماء .[1]

اما الاولاد فكانوا حسب الشرائع السومرية تحت سلطة الاهل بشكل مطلق ، اذ كان باستطاعتهم ان يحرموهم من الميراث وان يطردوهم خارج المدينة او يبيعوهم او يرهنوهم لقاء دين كعبيد ، ويظهر هذا جليا في قانون مملكة اشنونا :

"اذا قال اب او ام لولد ما لم تعد ابننا ، كان عليه ان يخرج

---

١. Ibid., p. 103

من المدينة ".[١]

كانت كثرة البنين من الامور المرغوب فيها في الشرق القديم كما هي الحال في الازمنة الحاضرة ، وكانوا كذلك يفضلون الاولاد الذكور. ومن المعتاد انه بعد ان يولد الولد يقر الوالد بابوته له باعترافه به ، ويأخذ المولود الجديد مكانته في المجتمع منذ الايام الاولى حيث يحتمل انه كان يسجل في السجلات[٢].

بالاضافة الى الاعتراف بالابناء الذين يأتون من الخليلة (وهؤلاء يكون مركزهم اقل من مركز اولاد المرأة الحرة) ، كان بامكان الاهل ان يعمدوا الى تبني احد الاولاد. وكان للولد المتبني حقوق موازية للولد الشرعي. وفي حالة رغبة الاهل ان يطردوا الولد المتبني ، كان يحق له ثلث الاموال والممتلكات المنقولة الموجودة مع الاهل. وفي حالة اكتشافه لاهله الحقيقيين ورغبته في العودة اليهم ، كان يباع كعبد[٣].

في كل معبد كان يوجد عدد من النساء البغايا (والبغاء في المعابد لم يكن يعتبر بغاء بالمعنى المعروف حاليا ، وانما تضحية مقدسة). وكان يسود الاعتقاد ان الاله يختص بمزايا ورغبات بشرية كبقية الناس ، اذ "ان الاله هو انسان مكبر" ، ولهذا كان من الطبيعي ان يتخذ الاله نساء له كما يفعل الرجال. وكانت رئيسة

---

١. Delaporte, Louis Joseph, Mesopotamia (New York: A.A. Knopf, 1925), p. 82.

٢. باقر ، طه نفس المصدر السابق ، ص ٤٠٦.

٣. Woolley, The Sumerians , p. 105.
يذكر وولي ان قانون التبني هذا كانت الغاية منه تفادي كثرة الاولاد الذين لا اباء شرعيين لهم نتيجة لانتشار عادة البغاء في المعابد. وبقاء هؤلاء الاولاد في المعابد كان عالة على الخزينة العامة.

هؤلاء النسوة تعتبر عروس الاله والبقية سواياه وجواريه اللواتي يعتبون طبقة دينية خاصة تتمتع باحترام القانون . وعندما كان يدخل رجل ابنته في سلك بغايا المعبد ، كانت تقام الاحتفالات والولائم ويجرى تقديم المهر تماما كما يجرى في عملية زواج عادية . وكانت عروس الاله تدعى انتو (Entu) وتعتبر ارقى صفوف هذه الطبقة . وكان يفترض فيها ان تكون صالحة ومستقيمة ، واحيانا كانت تكون احدى بنات الملك ذاتها كما حدث في اور عندما كانت (نا نار) كاهنة المدينة العليا . واما الطبقة الثانية من نساء المعبد فكانت تدعى سال مي (Sal-me) ، هؤلاء كن اكثر عددا من نساء الطبقة الاولى ، وكن يتعاطين التجارة واولادهن يسمون باسمائهن لا باسماء آبائهن ، اذ ان اباءهم يكونون عادة مجهولين. واما الطبقتان الاخريتان فهما زكرو (Zikru) او " المنذورات " وكاديشتو (Kadishtu) او "المقدسات".[1]

لقد كانت الشعائر الدينية توشح مهنة البغاء الديني بوشاح مقدس ، وكان تقديم البكارة في المعبد (بكارة الرجال كذلك) يعد من اثمن الضحايا التي تقدم للاله .

لا بد هنا من الاشارة الى الشعور الديني الذى كان ينمو ويتكون في اعماق الانسان جنبا الى جنب مع استقراره على الارض وامتهانه الزراعة . وقد ابتدأ هذا الايمان اول ما ابتدأ ، حين احس الانسان القديم ان مصير زراعته ومصيره ومصير افراد عائلته متوقف على عوامل خارجة عن ارادته واقوى منه ، ولهذا كان عليه ان يقدم لها الخضوع والصلاة والضحايا كيما يؤمن سلامة مزروعاته ، وسلامة مصيره بشكل عام . هذا الاحساس كان بدء الايمان الديني الذى تطور واصبح يتلخص في "ان الانسان يحقق هدف وجوده حين يخدم الآلهة . " وبدافع هذا الايمان كان جميع سكان القرية او البلدة او

---

١. Woolley, The Sumerians, pp. 107-108.

المدينة يلتقون على مستوى اجتماعي واحد ، هو خدمة الآلهه . ولهذا اتخذت هذه الخدمة طابقا تعاونيا بين افراد المجتمع السومري يصح معه تسميته بالمجتمع الثيوقـــراطي المتوجه منذ العهد الشبيه بالكتابي .[١]

كان للشعور الديني اثر كبير في نشوء المدن بسبب رغبة الناس في اقامة النصب الدينية في عهد اوروك وما تلاه ، بقصد التعبد . وكانت هذه المدن تعتبر ملكا لالـه المدينة ، وتعتبر المدينة كلها بخدمة هذا الاله ووكلائه الكهنة . وبهذه الطريقة كانت المدينة تتطور لتصبح الاطار الاجتماعي الاتم الذي وجد انسان ما بين النهرين ، في انتمائه اليه تحقيقا لشخصيته .

ان اهمية المدينة كاطار اجتماعي حدد نظرة السومريين القدماء الى الغير كما حدد نشاطهم الداخلي والخارجي تظهر من كثرة وروده في شرائعهم . حتى ان هرب رجل من المدينة ، كان يعتبر اثما كبيرا ، لدرجة انه لا يعد له حق بزوجته ان عاد الى المدينة ، كما يظهر من نص المادة الثلاثين من قانون مملكة اشنونا :

"اذا كره رجل مدينته وملكه فهرب ، ثم اخذ زوجته رجل اخر ، فاذا رجع الرجل فلن يكون له حق بزوجته ."[٢] ويظهر في النص المقدم سابقا من شريعة اشنونـا ان الاهل كانوا حين يطردون الولد بقولهم له لم تعد ابننا ، كان على الولد ان يخـرج من المدينة . وفي الاشارة الى طرد الولد من المدينة وليس من البيت مثلا ، دلالـة على مقدار اهمية المدينة في المجتمع الاشنوني .

---

١. Frankfort, The Birth of Civilization in the Near East, p. 64.

٢. Goetze, Albrecht, The Laws of Eshnuna, A.N.E.T. , Pritchard, James B. (ed.), p. 162.

وتظهر اهمية المدينة ،كذلك في ان النظام السياسي حين تطور في عهود فجر السلالات اتخذ طابع "دولة المدينة" . وفي هذا دليل على مدى شعور سكان كل مدينة في ما بين النهرين بوحدتهم وترابطهم معا واستقلال كيانهم عن بقية المدن .

بالنسبة للتقسيمات الطبقية في المجتمع السومرى فان ما ورد في الشرائع القديمة لا يكفي لتوضيحها توضيحا كافيا . الا ان هناك بعض الاشارات الى ان المجتمع الاشتوني في العهود السومرية المتأخرة ،كان مقسما الى ثلاث طبقات:

(١) الطبقة الاستقراطية ،وهي مكونة من الامير والكهنة والسادة . وبعبارة اخرى الصرحاء ويقال لهم اويلم .

(٢) الطبقة المتوسطة ، مشكينم، وهي مؤلفة من المعدمين من الاحرار ،كالعمال والفلاحين والفقراء ،ومن غير الصرحاء ممن قد لا يكونون معدمين ، بل يملكون اموالا . وقد وردت اشارة الى تملك المشكينم للرقيق .

(٣) الارقاء ،وردم[1] . وهي ادنى طبقة في المجتمع ،

ترجع هذه التقسيمات الطبقية في اساسها الى النظام العسكرى الذى كان سائدا آنذاك ،اذ لم يكن يسمح للارقاء الاشتراك في الحرب ،لان تسلحهم قد يشكل خطرا على الدولة . وكانت طبقة الاويلم او الاشراف تحتل مراكز الجيش والدولة . ولهذا فان حياة افراد هذه الطبقة كانت اغنى في الميزان العام من حياة سواهم[2] . غير

---

١. الناهي ، صلاح الدين ،تعليقات على قوانين العراق القديم ، (بغداد : مديرية الاثار القديمة العامة ،مجلة سومر ،كانون الثاني سنة ١٩٤٩) ، المجلد الخامس .

٢. Woolley, The Sumerians, p. 97

انه من الملاحظ ان شريعة حمورابي ،وهي وريثة الشرائع السومرية القديمة ،كانت تضع عقوبات على افراد الطبقة العليا اشد من العقوبات التي تضعها على من هم ادنى منهم مرتبة . ومن المعقول كثيرا ان تكون هذه المعاملة قد اتبعت في العهود السومرية كذلك ويلاحظ ايضا ان شريعة حمورابي كانت تميز بين حقوق الاميلو الطبقة الارستقراطية المرادفة للاويلم في قانون مملكة اشنونا، وبين حقوق المشكينو او المشكينم ،فقط في الامور التي تتعلق بالاشخاص، اى حيث تكون قيمة الشخص وحدها في الميزان ،واما فيما يتعلق بالسلامة العامة كاغتصاب الملكية او السرقة فان الطبقتين كانتا على مستوى واحد .

ان ظهور اولى الشرائع في العالم في ايام السومريين يدل على مقدار حرص هذا الشعب على ترسيخ العدالة بين افراده ،كما يدل على اولى الجهود البشرية لتنظيم الحياة الاجتماعية وفق قواعد واصول مدونة . ولعل ابرز الميزات في حضارات العراق القديم عامة ، ان الناس امتازوا عن سائر الشعوب القديمة بتمسكهم بالقواعد القانونية لانهم كانوا يعدون مصدرها واصلها من الالهة . فكان ملوكهم عند اصدارهم القوانين او ذكرهم نشر العدل والتشريع يقولون انهم مسوقون بارادة الالهة ورغبتها . فكانت المعاملات كافة صغيرها وكبيرها وجميع الاحوال الشخصية تجرى وفق احكام معروفة، كما كانت جميع هذه الامور والشؤون لا تعد ملزمة ما لم توضع باسلوب شرعي قانوني . ويمكن التأكيد مرة اخرى ان الشرائع لم تظهر في زمن اقدم وبوجه اوضح عند شعب اخر من شعوب الحضارات القديمة كما ظهرت عند سكان وادى الرافدين . وبالامكان التحقق من تغلغل النظم والشرائع في حياة العراق القديم من دراسة مآثر الملوك والامراء المسجلة ، اذ تكاد لا تخلو سجلات كل منهم من اشارة الى نشر العدل واقرار شرائع الالهة وحماية الضعفاء [١] .. ان نشوء

---

١. باقر ، طه ، نفس المصدر السابق ، ص. ٢٨١ .

الشرائع ورسوخها في حياة الشعب كان الضمان الاخير الذى جعل السكان آنـــذاك يطمئنون الى علاقاتهم بعضهم البعض ، ويشتركون معا في بناء حضارة زاهرة .

من الممكن الاستدلال على مقدار احترام السومريين للحقوق الشخصية من دراسة اوضاع العبيد ودراسة مفهومهم للعبودية . كان العبيد يأتون من مصدرين رئيسيين:

المصدر الاول : اسرى الحرب ، وهؤلاء يشكلون اكثرية العبيد .

المصدر الثاني : الرهائن لقاء دين من ابناء المجتمع ذاته . وكانت الحال ان عبيد اسرى الحرب كانوا في حالات كثيرة من الطبقات العليا في دولة المدينة المقهورة (لان المحاربين هم من الطبقات العليا) ، ولهذا غالبا ما يوازون اسيادهم ثقافة او اصلا ان لم يفوقوهم . لهذا لم يكن الفرق بين العبد وسيده فرقا كبيرا ، كما كانت الحال في اميركا مثلا قبل القرن التاسع عشر بعد الميلاد ، حين كان العبد يعتبر احط من سواه على اساس عنصرى دموي. وعلاوة على هذا فان ضمان الشرائع السومرية للعبد حقه في الحرية عندما يدفع ما عليه من مال ، جعل مركزه محفوظا في المجتمع . وقد نصت شريعة لبت عشتار في مادة صريحة على هذا الحق :

" اذا عوض عبد عن عبوديته فيجب ان يحرر "[1] . وكان باستطاعة العبد ان يحتج على بيعه وان يستدعي امام المحاكم بهذا الشأن كما كان باستطاعته ان يمتلك املاكا خاصة وان يقوم باعمال تجارية على حسابه الخاص وان يستثمر مالا . وكان منحه حريته لقاء شرائه اياها او لقاء منحها من قبل سيده نهائية لا يمكن استردادها[2] .

---

١. Kramer, S.N. Lipit Ishtar Law Code, A.N.E.T., Pritchard, James B. (ed.), p. 159.

٢. Woolley, The Sumerians, p. 98.

بالرغم من ان العبد كان يخضع لسيده خضوعا مطلقا ، اذ كان بدون سبب يضرب ، او يباع ، او يرهن لقاء مال ، وبالرغم من انه لم يكن يعامل على مستوى انساني لدرجة انه اذا نزل به مكروه كان الجزاء يدفع لسيده وليس له ، بالرغم من كل هذا بقي مركز العبد من الناحية العملية محترما ، ولو على درجة اقل من افراد الطبقتين الاخريين. ذلك لان مصدر العبيد آنذاك جعل العبودية امرا وقتيا لانهائيا ، اذ انه من الممكن ان يصبح الرجل الحر عبدا والعبد حرا بصورة سريعة . ولهذا من المعقول ان تكون النظرة الى العبد ليست وضيعة جدا . وما يدعم هذا القول ان رهن الرجل لامرأته او اولاده هي عادة ، ما كانت لتعرف في مجتمع كالمجتمع السومري يحرص على احترام الروابط العائلية ، ولو لم تكن العبودية امرا عاديا لا ينزل بالعبد عارا مهينا .

ب ـ الحياة الاقتصادية في سومر

مع نزول الانسان القديم ارض العراق الجنوبية على دفعات متتالية ،وامتزاج مختلف الاقوام ،ونشوء العنصر السومرى نتيجة لهذا الامتزاج ،ومع ارتباط الانسان السومرى بالارض واستقراره عليها ، ابتدأت حياته تتخذ وجهة جديدة تتفق مع متطلبات الارض والبيئة الجديدة . فالمحرضات التي قدمتها هذه البيئة ،كانت تقتضي استجابات معنية ليس بالمعنى الاقتصادى وحسب ، وانما بالمعنى الحضارى الشامل . ولهذا ففي تتبعنا لاستجابات السومريين الى المحرضات الاقتصادية في بيئتهم الجديدة ، انما نكون في الوقت ذاته نتتبع عملية نمو حضارى يشمل نشاطهم في مختلف حقول الحياة .

من هنا اهمية تتبع ارتباط الاقتصاد السومرى بالنظام الاجتماعي والسياسي الذى كان بدوره مرتبطا بالمعتقدات الدينية السائدة آنذاك . فنتيجة للاعتقاد السائد ان المدينة هي ملك لاله معين ،وان هذا الاله يوكل عنه احد خدامه البشر ليدير شؤون المدينة ،اصبح الاقتصاد يجرى وفق ارادة وكيل الاله ،او كاهن المدينة الاعلى . بهذا المعنى يمكن تسمية الاقتصاد السومرى بالاقتصاد الموجه (Planned Economy) وفق ارادة الكهنة ، اى انه من الناحية العملية ،كان اقطاعا كهنوتيا لا يخلو من مساوىء الاقطاع الحديث ،من استثمار الاقطاعي (الكاهن) مركزه واستغلاله اتعاب الفلاحين . كان الكهنة يتخذون المعبد مركزا لهم يوجهون منه اعمال المدينة . وكانت المدينة تضم المعبد ومجتمع المعبد الذى يشمل الصناعيين والحرفيين والتجار . واما الفلاحون والمزارعون فكانوا يعيشون في القرى ويعملون في الحقول ،يزرعون ويحصدون ويقدمون

الغلال للمعبد بعد ان ينالوا نصيبا معينا .

ولكن الى جانب هذا الاقتصاد الموجه كان هنالك مجال واسع للنشاط الشخصي الحر . كان يسمح للحرفيين ، في مجتمع المعبد ، ان يستفيدوا من مهاراتهم استفادة شخصية شرط ان يستعملوا موادا من عندهم لا من املاك المعبد . كما كان باستطاعة الصياد او الراعي ان يتصرف بمواشيه كيفما يشاء شرط ان يكون قد سدد للمعبد حصته [١] . فالغنى والفقر والنجاح والفشل كانت في الغالب نتائج عوامل شخصية . اذ ان العمال النشيطين كانوا غالبا ما ينالون مدخولا افضل [٢] . لقد كان الناس يجدون مجالا واسعا للاشغال والنشاطات الخاصة ، ولكن في الامور العامة الضرورية لحياة المدينة باجمعها كامور الرى مثلا ، كانت الادارة تتخذ طابعا جماعيا لا فرديا [٣] .

يصف "كرمر" الاقتصاد الذى كان سائدا في مدينة (لجش) في حوالي عام ٢٥٠٠ ق.م . بانه كان مزيجا من الاقتصاد الاشتراكي الخاضع لتوجيه الدولة ومن الاقتصاد الرأسمالي الحر . فباعتبار ان حاكم المدينة هو وكيل الآلهة ، وان المعبد هو الجهاز الذى بواسطته تدير الآلهة الحكم ، كان المواطنون مالكين للارض ليس بالمعنى النهائي المطلق ، بل بمعنى القيمومة التي تفسح المجال للنشاط الشخصي الحر ، ولكنها في الوقت نفسه تقيد تصرف المالك ببعض الشروط [٤] .

---

١. Frankfort, The Birth of Civilization in the Near East, p. 73.

٢. Kramer, S.N., From the Tablets of Sumer (Indian Hills: Colorado; Falcon's wing press, 1956), p. 62.

٣. Ibid., p. 62.

٤. Kramer, From the Tablets of Sumer, p.42

هذه هي طبيعة الاقتصاد السومرى عامة . الا ان هذا الاقتصاد ، كما هو الاقتصاد الحديث اليوم ، كان يجرى وفق اتجاهات ثلاث رئيسية : الزراعة والصناعة والتجارة .

أ) الزراعة : كان السومريون شعبا زراعيا قبل كل شيء . ويرجع ذلك الى خصب الاراضي التي نزلوا فيها والتي كانت قد نشأت بفعل تجمع مواد الطمي ، حتى انه لم يكن من الامور المستحيلة ان تعطي الارض مئة ضعف البذار.[1] غير انه بالمقابل لهذا الخصب ، كانت هناك مخاطر متعددة ليس اقلها الفيضانات ، والجفاف ، وقلة الامطار ، والرياح العاتية ، ولهذا كان لا بد للسومريين من ان يواجهوا مصاعب الطبيعة ويلجموا عنانها كيما يقدروا ان يحصلوا على ضروريات الحياة . وقد عثرت بعثة اركيولوجية عام ١٩٤٩ = ١٩٥٠ ، باشراف جامعتي بنسلفانيا وشيكاغو في مدينة نفر على رقيم يستنتج منه كيفية مواجهة السومريين لهذه المصاعب .

ولهذا الرقيم اهمية خاصة اذ يدل على ان الفلاحين كانوا يسجلون اختباراتهم الزراعية ويقدمونها كنصائح للاجيال التي تلي . يرجع عهد هذا الرقيم الى عام ٧٠٠ ق.م . وهو يبدأ بالعبارة التالية :

"في الايام الخوالي اعطى احد الفلاحين الارشادات التالية لابنه "[2] وبعد

---

١. Childe, What Happened in History, p. 90.
Delaporte, Mesopotamia, p. 109.
ولكن د يلابورت يقول ان النسبة كانت خمسين الى واحد ، ويعتمد في ذلك على الارقام المقدمة في رقيم للايشاكو لوجالندا .

٢. Kramer, From the Tablets of Sumer, p.61.
ويجدر القول هنا انه حتى تاريخ اكتشاف هذه اللوحة كانت تعتبر التعليمات الزراعية الواردة في كتاب الشاعر اليوناني هزيود "الاعمال والايام" في القرن الثامن ق.م . اول ارشادات زراعية من نوعها ، ولكن لوحة نفر هذه تسبقها بنحو الفسنة .

هذا يلي ١٨٠ خطا من الارشادات التي تتعلق بافضل طرق الحراثة وتوزيع المياه واتقاء الفيضانات وحفظ المزروعات وطريقة الحصاد . وقد عثرت البعثة ذاتها على لوحة اخرى تشير الى معرفة السومريين لطرق حماية المزروعات الصغيرة من قساوة الريح والمطر بواسطة زراعة الاشجار الباسقة لتقيها قساوة العوامل الطبيعية .[١]

بالاضافة الى هذين الرقيمين هناك مواد كثيرة في الشرائع السومرية تتعلق بتنظيم الشؤون الزراعية ـ كتعيين حصة الفلاح من منتوج الارض ، وتنظيم الرى والحراثة . وفيما يلي مادتان من قانون لبتعشتار ، كمثال على دقة اهتمام السومريين بتنظيم الامور الزراعية .

المادة الثامنة : " اذا اعطى رجل ما ارضا بورا لرجل اخر كي يجعلها بستانا ، ولم يتم الرجل الاخر المطلوب ولم يجعلها بستانا ، عليه ان يعطي للرجل الذى يجعلها بستانا الارض التي اهملها كجزء من حصته "[٢] .

المادة العاشرة : اذا اقتطع رجل شجرة من بستان رجل اخر ، عليه ان يدفع نصف مينا من الفضة ".[٣]

عثر حديثا على بعض الاثار التي تصور المحراث العراقي القديم الذى يكاد لا يختلف كثيرا عن المحراث الذى يستعمله فلاحو العراق الحديث . الا ان المحراث القديم كان افضل من المحراث الحديث البدائي ، اذ كان من جملة اجزائه انبوب في هيئة

---

١ . Kramer, From the Tablets of Sumer, p.67.
ويدعوها كرمر بالتجربة الاولى في فن تظليل المزروعات بالاشجار

٢ . Kramer, Lipit Ishtar Law Code, A.N.E.T., p. 160.

القمح لبذر البذور اثناء الحراثة . كما عثر على انواع من المناجل والفؤوس القريبة الشبه من المناجل والفؤوس المستعملة في العراق اليوم .[1]

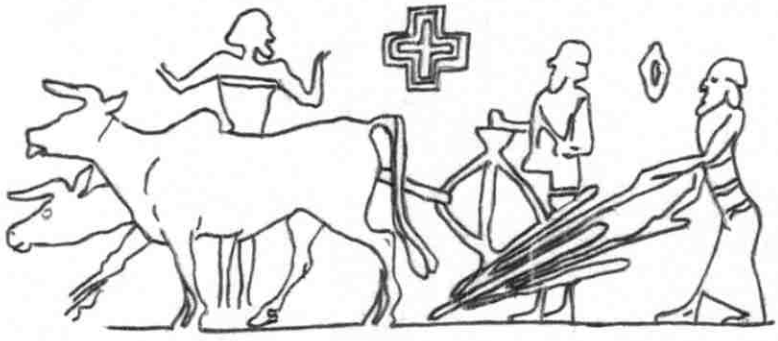

الحراثة ـ عثر على هذا المشهد على خاتم اسطواني في مدينة نفر

واما انواع المزروعات فلا تختلف كثيرا عما هي عليه اليوم . فالحنطة والشعير كانا المحصولين الرئيسيين بين الحبوب ، وقد عرفت الذرة والسمسم . واما الرز فلعله ادخل الى العراق عن طريق ايران في العهد الاشوري . وتعتبر النخلة اقدم واهم شجرة في العراق . وكانت العادة ان تزرع الفراغات بين اشجار النخيل بالاشجار المثمرة كالتين والكرمة والرمان والتفاح والكمثرى والفستق واللوز وغيرها .[2]

اما من ناحية الملكية الزراعية (Ownership) ، فالارض كانت من الناحية النظرية ، ملكا لاله المدينة ، اي لمعبد المدينة . واما من الناحية العملية فبالرغم

---

١. باقر ، طه ، نفس المصدر السابق ، ص. ٤١٧ .

٢. باقر ، طه ، نفس المصدر السابق ، ص. ٤٢١ .

من ان جماعة المعبد كانوا يملكون جزءا كبيرا من الاراضي يؤجرونها للبعض بالحصة ، كان اغلب الارض ملكا للافراد من المواطنين ، حتى ان الفقراء منهم كانوا يملكون ارضا وبيوتا ومواشي .[1] وكانت القاعدة ان العضو في مجتمع المعبد يعطي ارضا كاعتراف على انه من السلطة / وضع مهاراته ومعرفته في خدمة المجتمع .[2]

وقد تتغير ملكية الارض بالنسبة للسلالة الحاكمة وللفتح والحروب التي تجرى وكان الملك او الامير يمنح املاكا لرعيته لقاء خدمات معينة . وقد جرت العادة ان تحدد الاراضي المملوكة وتثبت ملكيتها بسندات مدونة . اما الاراضي التي لا يشغلها احد فتعتبر ملكا لاول من يسكنها ويستغلها .[3]

تظهر طبيعة النظام الاقتصادي السومري الذي يدعوه "كرمر" بالمزيج من الاقتصاد الموجه والاقتصاد الحر ، من طريقة العمل في الارض العامة (Common land) التي تعود غلتها الى مجتمع المعبد . وهذا النوع من الاراضي العامة تبلغ مساحته عادة ربع مساحة املاك دولة المدينة ، وهي تعتبر ملكا لجميع العاملين في المعبد ، من كهنة وموظفين وصيادين وحرفيين وبنائين وتجار ، الذين يكونون جميعا " مجتمع المعبد "، ويدعون بشعب الاله كذا - باسم اله المدينة - . وترجع غلة هذا النوع من الاراضي الى جميع اعضاء مجتمع المعبد بدون استثناء ، اذ كان المفروض ان جميعهم يعملون وهناك نوع اخر من الاراضي يؤجره المعبد للفلاحين ويتقاضى عنه من $\frac{1}{3}$ - $\frac{1}{6}$ الانتاج من المستأجر . وكان على المعبد تأمين البذار والالات والحيوانات للحراثة ، بينما كانت

---

١. Kramer, From the Tablets of Sumer, p. 43.

٢. Frankfort, The Birth of Civilization in the Near East, p. 67.

٣. باقر ، طه ، نفس المصدر السابق ، ص. ٤٢١ .

اعمال الحراثة والرى وشق القنوات يقوم بها جميع الفلاحين كبيرهم وصغيرهم الذين يعتبرون انفسهم يعملون في حقول اله المدينة [١].

مع ان النصيب من الانتاج لم يكن متساويا بين الجميع ، فالملاحظ انه ، من الناحية المبدأية ، لم يكن هناك فرق بين اعضاء "مجتمع المعبد" على مختلف طبقاتهم ، اذ انهم جميعا كانوا ينالون حصصا من الانتاج وجميعهم كانوا يعملون . وبهذا المعنى لم يكن هناك طبقة من الاقطاعيين المترفين (Leisure Class). كان العبيد يعملون جنبا الى جنب مع الرجال الاحرار في الحفر والزراعة . في زمن البذار وفي زمن الحصاد وجمع الغلال لم يكن يوجد فلاح واحد خارج الحقول . ايام المواسم كل مواطن كان يعمل ليحصل على قوته ، ولم يكن الفلاحون يعتبرون طبقة خاصة . وبين موسم وموسم كان يوجد وقت طويل يتعلم فيه الناس مختلف الحرف والفنون الكثيرة الاخرى [٢].

كان لشؤون الرى اهمية قصوى في الزراعة السومرية ولا تزال اثار الاقنية الكثيرة ماثلة الى اليوم تشهد على عبقرية السومريين في فنون الرى . وكان من عمق ادراكهم لفنون الرى ان استغلوا ارتفاع وادى الفرات عن وادى دجلة فشقوا انهارا عظمى من الفرات الى دجلة بحيث قسم السهل كله الى شبكة واسعة من الاقنية . وقد طغت اخبار شق هذه الاقنية على غيرها من اخبار الملوك واصلاحاتهم ، حتى ان حفر نهر او قناة جديدة كان يعتبر حدثا هاما يؤرخون به الحوادث [٣].

---

١. Frankfort, The Birth of Civilization, p.65.

٢. Ibid., p. 66.

٣. باقر ، طه ، نفس المصدر السابق ، ص . ٤٢٧ .

بالاضافة الى حفر الاقنية عمل السومريون في بناء السدود على نهر دجلة لتحويل قسم من مياهه الى الاراضي المجاورة . وكانت تتفرع من هذه السدود الاقنية والجداول الكثيرة بحيث تخفف من ضغط المياه وتقلل من خطر الفيضانات ،وتروى الاراضي الجافة التي لا تصلها المياه . ولا ريب ان اعمالا كهذه كانت تستدعي معرفة عميقة لاصول الهندسة وفنون المسح والقياس ،كما انها كانت تستدعي عقلية عملية .

ب) الصناعة ؛ منذ ان نزل الانسان في جنوب العراق واستقر على الارض ،كان لا بد له من ان يستعين بالادوات في الزراعة والبناء والصيد . وكان ،بين نهاية العصر الحجرى المتأخر في حدود الالف السادس او الخامس ق.م . ، وبين الالف الثالث ق.م . ، لا يزال يستعمل الطين المشوى والحجارة والمواد الاخرى غير المعادن في صنع معظم ادواته . ولكنه ابتدأ يستعمل المعادن بالتدريج وانتشر فن التعدين في الاطوار الاخيرة من هذه الازمنة وبوجه خاص في طور العبيد في حدود الالف الرابع ق.م . حين صارت الادوات المعدنية تستعمل جنبا الى جنب من الادوات الحجرية القديمة . ولهذه الاسباب يسمي المؤرخون هذه الاطوار ولا سيما الدور الاول منها ، بالعهد الحجرى- المعدني .[1]

ابرز ما في الآثار التي عثر عليها من عهود ما قبل السلالات والتي يمكن الاستدلال منها على المقدرة الصناعية لسكان ما بين النهرين الاول ، المصنوعات الفخارية الكثيرة . فلقد عمت صناعة الفخار جميع اقطار الشرق الادنى حتى بداية العهد التاريخي في اواخر الالف الرابع ق.م . اى حتى نهاية العهد الحجرى- المعدني .[2]

---

١ . باقر ، طه ، نفس المصدر السابق ، ص ٤٩٠ .

٢ . باقر ، طه ، نفس المصدر السابق ، ص . ٥ .

يمتاز الفخار المصنوع في طور العبيد بانه مزين بلون واحد وانه يحمل اشكالا وصورا مجردة لا تعني شيئا محددا . وان ارضية الاناء تكون ذات لون مائل الى الاخضرار[١] . وقد شاع في هذا العهد استعمال الادوات النحاسية . وكذلك عرفت الحياكة في هذا الطور بدليل العثور على المغازل والابر[٢] . وعرفت صناعة الحصر والسلال. كما عثر على محاريث ذات رؤوس من الصوان ومناجل من الفخار المطبوخ طبخا شديدا .

في عصر اوروك ادخل دولاب الخزف الى صناعة الفخار ، الامر الذى ادى الى تنوع اشكال الفخار وتعدد اشكاله . وقد عثر على المزهريات والصحون وكثير من الاواني الخزفية الاخرى التي تعود الى هذه المرحلة . وادخال الدولاب في صناعة الفخار له دلالة اخرى هي ان الاقدمين كانوا قد اتقنوا التعدين حتى تمكنوا من ادخال الدولاب في الصناعة . والواقع ان مهارة الاوروكيين التعدينية ، لم يعد يرقى اليها الشك بدليل العثور على كثير من المصنوعات كأدوات الزينة كالدبابيس والاقراط والاساور ، والسلاسل والمسابح ، التي ترجع الى هذا العهد . وكان يستعمل الذهب والفضة في صناعة هذه الادوات . وتدلنا هذه الموجودات ان الاوروكيين قد عرفوا البرونز والحديد كما انهم استطاعوا ان يمزجوا النحاس بالرصاص.[٣]

بالاضافة الى المهارة التعدينية فقد تقدم فن البناء في طور اوروك تقدما واسعا . اذ عثر على معابد مشيدة على مصاطب صناعية مكونة من عدة طبقات ، (هي اصل الزقورة) او الصرح المدرج . كما عثر على نموذج للزقورة في موضع يسمى العقير

---

١. Frankfort, Archeology & the Sumerian Problem, p. 19.

٢. باقر ، طه ، نفس المصدر السابق ، ص. ٦٥ .

٣. Childe, op.cit., p. 163.

نقبت فيه مديرية الاثار العراقية ،ويرجع عهده الى طور الورقاء .[١] وقد انتشر في هذا الطور استعمال الاختام الاسطوانية ودخلت العربة ذات العجلة والمحراث المعدني الذى حل محل قطعة الحجر. اما السفن الشراعية فكانت قد عرفت منذ طور العبيد بدلالة ما وجد من نماذج طينية للسفن الشراعية ترجع الى طور العبيد في اور واريدو.[٢]

كانت مرحلة جمدت نصر مرحلة تنوع في الصناعات التي نشأت في المرحلتين السابقتين. فقد تقدم فن البناء والنحت في هذه المرحلة ، كما عثر على اواني فخارية متعددة الالوان ،وبها اشكال الحيوانات والطيور واواني نفيسة من الاثار الغنية المطعمة والموصعة بالاحجار البديعة . وكثر في هذا العهد استعمال الادوات النحاسية ، وتقدم فن التعدين حتى انهم عرفوا طريقة فصل الفضة عن الرصاص.[٣]

تعتبر اطوار ما قبل السلالات هذه - العبيد ،واوروك ، وجمدت نصر - اطوار ممهدة لازدهار الصناعة في عصور فجر السلالات. اشتهرت المرحلة الاولى من هذه العصور بالمعابد في منطقة ديالي ، وانتشر الفخار المصبوغ بلون احمر قرمزى. واشتهرت المرحلة الثانية بكثرة التماثيل والانصاب الغنية ،وتعتبر المرحلة الثالثة قمة ازدهار الصناعة السومرية . وقد وجدت اثار في مدافن الملوك التي نقب فيها السير ليونارد وولي ،ترجع الى هذه المرحلة . وعثر في هذه المقابر على نفائس ذهبية كالتيجان والخناجر والقيثارات ومن بين ذلك قيثارة تعود الى " شبعاد " ذات احدى

---

١. باقر ، طه ، نفس المصدر السابق ، ص ٦٨.

٢. Childe, op. cit., p. 115.

٣. باقر ، طه ، نفس المصدر السابق ، ص ٧٣.

عثر مفتاحا من الذهب ،كما عثر على الاكواب والخوذ وتماثيل الحيوانات وكثير منها من الذهب الخالص المسبوك والمصنوع صنعا دقيقا يشير الى فن رائع جميل . وعثر كذلك على نماذج لعربة من البرونز. وتدل نماذج الابنية التي توجع الى هذه المرحلة ، كالقصور والمعابد على تقدم فن العمارة ورقي الذوق الفني ، وقد عرفت القبة والقوس . واما فن التعدين وسبك المعادن والصياغة فقد تقدم شوطا واسعا ،اذ استعمل نوع من النحاس المخلوط بالقصدير بنسبة ٦ — ١٠ من القصدير . وكان مصدر النحاس السومري عمان وايران والاناضول ، ومصدر القصدير الاناضول . كما ان المعدنين اتقنوا فن السبك والصب وطريقة اللحم بالاسلاك ، وقد وجدت نماذج كثيرة من الاسلحة كالخناجر والسيوف والفؤوس وصنعوا اشياء نفيسة من المعادن كالمرايا والاباريق والاواني [1] .

ان مهارة السومريين الرئيسية في الصناعة تكمن في المعلومات الكيميائية وفنون التعدين التي حصلوا عليها . فقد ازدهرت صناعة المعادن رغم عدم توفرها في بلادهم ، فعرفوا البرونز واتقنوا تعدينه منذ عصور فجر السلالات ، كما اتقنوا مزج المعادن فصنعوا بهذه الطريقة معدنا مزيجا من الذهب والفضة هو الالكترم (Electrum) عثر على اوان منه في المقبرة الملكية في اور . وقد حصلوا على المعارف العملية في الفيزياء والكيمياء من خلال التعدين فعرفوا قابلية السلكات القلوية للانصهار وصنعوا نوعا من الزجاج المعتم . كما برعوا في الصب وصنع التماثيل بدرجة كبيرة من المهارة . وصنعوا سبائك قوية من النحاس بخلطه بالرصاص والاثمد واستعملوا الحديد بقلة في العصور القديمة ولم يشع استعماله بكثرة الا منذ الالف الاول ق.م .

---

١ . باقر ،طه ، نفس المصدر السابق ، صص ٨٠ — ٨٧ .

٢ . باقر ،طه ،نفس المصدر السابق ، ص . ٣٦٣ .

ج) التجارة : عند ابتداء الحضارة السومرية في التوغرع وجد سكان جنوب العراق انفسهم في ارض تنقصها المواد الخام كالمعادن والاحجار المختلفة والاخشاب فاستعاضوا عن ذلك في بادىء الامر ، بشوى الفخار وصناعة المسامير والمناجل منه في موحلة العبيد ولكنهم تدريجيا التجأوا الى التجارة مع الاماكن التي تكثر فيها تلك المواد . وهذا يعني ان التجارة قد عرفت في ما بين النهرين منذ طور العبيد . واستعمال العراقيين القدماء لبعض انواع الحجارة والمعادن واشياء اخرى لا توجد في العراق يدل على سعة تجارتهم منذ اقدم العصور . وقد اظهرت التحقيقات حتى الان على ان النحاس كان يستورد من جزيرة العرب (من عمان والبحرين) ، وعندما تعلموا صناعة البرونز صاروا يستوردون القصير لخلطه بالنحاس من شرق ايران ومن سورية ومن آسيا الصغرى وحتى من اوروبة . وجلبوا الفضة والرصاص من جبال طوروس ، والاخشاب من المنطقة الجبلية في الجهات الشمالية الشرقية ومن سورية ولبنان واستوردوا بعض الاحجار الكريمة مثل حجر اللازورد والعقيق الاحمر وغيرها من الاحجار الكريمة من الافغان ، والصوف من خليج فارس .[1]

يدلنا على سعة انتشار التجارة في العهد السومري كثرة العقود والمعاملات التجارية ، حتى ان ٩٥ بالمئة من اللوحات السومرية الموجودة في مختلف متاحف العالم ، والبالغ عددها ما يقرب من ربع مليون لوحة ، تتعلق بشؤون اقتصادية ، معظمها عقود بيع وشراء وشراكة ووصيات ولوائح اعمال واجور ورسائل .[2]

---

١ . باقر ، طه ، نفس المصدر السابق ، ص. ٤٤٠ .

٢ . Kramer, S.N., Sumerian Mythology (Philadelphia: The American Philosophical Society, 1944), p. 10.

ويرد في النصب التي اقامها الحكام السومريون تخليدا لذكراهم كثير من الاشارات الى امور تجارية . من هذه النصب عمود اسطواني تركه جوديا كاهن مدينة لجش ،نقشت عليه بعض العبارات نقدم هنا بعضا منها :

من اللوحة (أ) : " في الموانئ التي لم يدخلها احد قبلا شق جوديا طريقه الى الارض الجبلية ، واقتلع الحجارة بقطع كبيرة ، وحمّلت السفن بمختلف انواع الحجارة وملئت الدلاء بالقار والجفصين من جبال ماغدا كما لو انها تملأ بالشعير من الحقول ، وقدم للكاهن جوديا اشياء ثمينة اخرى كالنحاس والذهب والفضة والمرمر ."[1]

من اللوحة (ب) : " لما كان جوديا يبني هيكل نينجروسو ، فتح له مليكه الحبيب كل الطرق التجارية من البحر الاعلى الى البحر الاسفل ،من الامانوس وجبال الارز ،جلب الخشب ،ومن عمان اقتلع الحجارة الضخمة ومن الارض القريبة جلب المرمر بقطع كبيرة ومن المنطقة الجبلية في كيماش استخرج النحاس ومن جبال هاهوم استورد الذهب وصنع منه الاواني الكثيرة ، ومن جبال ماغدا استورد القار ودعم به حائط الهيكل ."[2]

اما فيما يتعلق بالمواصلات فان اخبار ملوكهم تشير الى اهتمامهم بتأمين المواصلات حتى انهم كثيرا ما شنوا الحملات الحربية لاخضاع الاقوام والقبائل التي تمر من بينها الطرق التجارية المهمة ،وبناء الحصون والقلاع العسكرية لضمان ذلك وانشاء نظام للبريد . وقد عثر المنقبون حديثا في منطقة الخابور في شمال سورية على حصنين عظيمين بناهما الملوك الاكاديون في القرن الرابع والعشرين ق.م . للمحافظة على الطرق

---

١. Oppenheim, Leo A., Babylonian & Assyrian Historical Texts, A.N.E.T., Pritchard (ed.) pp. 268 - 269.

٢. Ibid., pp. 268 - 269.

المهمة التي كانت تربط العراق بسورية . وقد جرد سرجون الاكادى حملة حربية الى الاناضول لحماية مستوطن اكادى للتجارة انشئ في كبدوكية في الاناضول للتجارة بالصوف والفضة .

الى جانب الطرق البريه كانت هناك الانهار والاقنية للمواصلات ، اذ ان المدن السومرية والاكادية كانت مزروعة على جوانب نهر الفرات . وبواسطة الماء نقل اورنانشي الخشب لبناء معبد لجش ، كما فعل جوديا بعده . وقد عثرت مديرية الآثار العراقية في اريدو على نموذج قارب يعد من اقدم ما صنعه الانسان ، اذ يرجع تاريخه الى عهد العبيد (بحدود الالف الرابع ق.م.) [١] كما تحمل النقوش الاثرية صورا للسفن التي كانت تستعمل لنقل جميع الاشياء - الركاب والشحن كالحيوانات والحبوب . [٢] ويدلنا انتشار الحضارة السومرية القديمة وانتشار اختراعاتها حتى في العصر الحجرى المعدني الى مناطق اخرى من العالم مثل جزر بحر ايجه " والتركستان والهند الى سعة انتشار التجارة والمواصلات بين بلاد ما بين النهرين وبقية انحاء العالم . [٣]

لقد كانت التجارة بالشراكة معروفة لدى السومريين والاكاديين بشكل اتفاق اثنين او اكثر على شراء قطعة ارض او غرسها . [٤] ولكن بالرغم من مقدرتهم التجارية

---

١. باقر ، طه ، نفس المصدر السابق ، ص. ٤٣٩ .

٢. Delaporte, Mesopotamia, p.114.

٣. باقر ، طه ، نفس المصدر السابق ، ص. ٥٥ .

٤. Delaporte, Mesopotamia, p. 117.

العالية فانهم لم يعرفوا النقود ، اذ ان فكرة النقد بحد ذاتها لم تخطر لهم ببال وعوضا عن ذلك فانهم استعملوا قطعا معدنية غالية الثمن بشكل اقرب ما يكون الى المقايضة[١] . وكان الشعير هو الوحدة التجارية في المعاملات المحلية ، واما في المعاملات البعيدة فكانت الوسيلة التجارية هي الفضة او الذهب . وفي عهد سوجون الاكادي ، كان الذهب يساوي ثمانية اضعاف امثال وزنه فضة .[٢] وبالرغم من عدم معرفتهم للنقد ، فلقد شاع الدين والفائدة ، وكانت فائدة الشعير تبلغ كحد اقصى ٣٣ $\frac{1}{3}$ بالمئة سنويا ، واما الفضة فتبلغ ٢٠ بالمئة ، ولكن في ايام سلالة اور الثالثة بلغت فائدة الفضة ٢٥ بالمئة نتيجة لازدهار التجارة في البلاد .[٣] وفي قانون مملكة اشنونا مواد كثيرة تتعلق بالديون والفائدة والرهائن كالمادة الواحدة والعشرين التي تنص على انه :

"اذا اعطى رجل فضة لرجل اخر كدين يجب ان يتسلم الدائن الفضة وفائدتها البالغة سدسا من الشقل وستة حبات لكل شقل واحد ."[٤]

كما يحوي قانون مملكة اشنونا لائحة طويلة تحدد الاسعار لمختلف اصناف الحبوب والمعادن ولاجور النقل بواسطة السفن والحيوانات وسواها .[٥] وقد عثر

---

١. ظهرت النقود لاول مرة في القرن السابع ق.م. في اشور.

٢. Woolley, The Sumerians, p. 117.

٣. Ibid., p. 118.

٤. Goetze, The Laws of Eshnuna, A.N.E.T., Prichard,(ed.), p. 162.

٥. Ibid.

المنقبون على رقيم يحمل سند لين هذا نصه :

"أدا - كالا استدان من اور - دول - ازاغا ١٢٠ شقلا من الفضة بفائدة قدرها خمس شقلات لكل ٦٠ شقل . وسيرجعها في شهر " سيج " . ولقد اقسم بالملك . "[١]

وبعد هذا النص تلي تواقيع ثلاثة اشخاص كشهود . ثم تاريخ السند (شهر كذا ، في السنة التي هاجم فيها الملك المقدس ابن سين بلاد سومر) . وبعد هذا توجد ثلاث اختام هي توقيع المدين أدا - كالا ابن اورسين . ان الدقة في هذا السند تظهر مقدار تميز السومريين بالدقة في المعاملات التجارية ، ويذكر المؤرخون ان الموازين والقياسات التي استعملوها فاقت في دقتها كل الشعوب القديمة ولم يتفوق عليها شعب من الشعوب التي تلتها الا في الزمن الحاضر .[٢]

كان التجار في تلك الازمنة القديمة يحصرون نشاطهم بالاستيراد والتصدير من والى خارج البلاد اكثر من اهتمامهم بالتجارة الداخلية . فلقد كانوا يسافرون الى الخارج لجلب الحجارة والذهب والفضة والنحاس والرصاص والخشب والعطور والبخور وبالمقابل لذلك كانوا يبيعون الحبوب والتمر والبصل والمنتوجات الاخرى . واهم هذه المنتوجات لم تكن في العصور المتأخرة الزراعية منها ، وانما المصنوعة باليد كالاقمشة الصوفية والسجاد والادوات والاسلحة والاشياء المعدنية الكثيرة التي كانت

---

١. Meek, J. Theophile, Mesopotamian Legal Documents, A.N.E.T., p. 217.

٢. Sarton, George, A History of Science (Cambridge: H arvard University press, 1952), pp. 79-80.

تستورد وتصنع في سوسواكاد . وتجدر الاشارة الى ان التجار كانوا يزودون في بعض الاحيان بقوافل من الحمير من املاك المعبد تسهيلا لاعمالهم التجارية .[١]

---

١. Frankfort, The Birth of Civilization in the Near East, p. 74.

جـ ـ الحيـاة السياسية في سـومر

عندما نزل سكان ما بين النهرين ارض العراق الجنوبية في حـدود الالف الرابع قبل المسيح ، وجدوا انفسهم في سهول رحبة زائدة الخصب . فانهمكـوا اولا بجني المحاصيل وابتدأوا يقيمون لهم نوعا من التجمعات الزرعيـة عرفـت بالقـرى (Villages) كانت تفصل بينها المستنقعات الكثيرة والحقول الواسعـة ، حتى ان احتكـاك السكان ببعضهم البعض كان قليلا . ولكن مع توالـي الايـام وتكاثـر السكان في السهل وتحسين الوسائل الزراعية اخذت الحقول المحروثة تتقارب من بعضها البعض وابتدأ الاحتكاك بين الناس يتزايد وظهرت المنازعات على حقوق الارض والمياه . وهكذا وبصورة تدريجية احس السكان بارتباط مصالحهم بعضها مع بعض وتحققوا انه لا بد من قيام نظام ما ينسق هذه المصالح .

في ما قبل العهد الشبيه بالكتابي حين كانت حياة الناس في معظمها حياة قـروية زراعيـة ، كانت طريقة الحكم اشبه ما تكون بالطريقـة المتبعة في قـرى العراق والشرق الاوسط اليوم . كان رأس القرية في ما بين النهرين الكاهـن ، وهـو اليوم المختار . وكان الناس يشتركون مع الكاهن ، كما يشتركون حاليا مع المختـار في توجيه شؤون القرية والاهتمام بامورها ، ويتعاونون ويتشاورون معا عند وقوع امـر هام يستوجب قرارا حاسما . لقد كان رؤوس العائلات والكبار في القريـة يشكلون نوعا من "المجتمع القروي الاعلى" يدير بالتعاون امور القرية . وعندما يختلف اعضـاء هذا المجتمع حول امر ما كانوا يرجعون الى الرجال الاحرار من حملـة السلاح ويطلبـون

قرارهم في الامر . ان بعض الكلمات " كالمجمع " و "الكبار " التي عثر عليها في بقايا العهد الشبيه بالكتابي تدل على وجود نوع من الحكم الجماعي الاستشارى اثناء العهد الشبيه بالكتابي وما قبله .

لقد خضعت المؤسسات التي نشأت في العهد الشبيه بالكتابي وما قبله الى تفسيرات كثيرة بشكل يترك في ذهن القارئ ان ذلك النوع من " الحكم "الذى يدعوه كرمر [1] وجاكوبسن [2] " بالديمقراطي البدائي (Primitive Democracy) كان معروفا كذلك في عهد فجر السلالات وكان الطابع الذى تميزت به دول المدن السومرية . ويعتمد كرمر وجاكوبسن في هذا على قصة اسطورية ترجع الى ما قبل نشوء السلالات التاريخية وتعرف بقصة " جلقامش وآجا " ويستنتجون من هذه القصة انه كان هناك مجمعان يحكمان ويقبضان على زمام السلطة السياسية ، هما "مجمع الشيوخ "او"الكبار" او "مجمع الرجال " . ملخص هذه القصة ان ملك كيش المعروف "بآجا " ارسل الى ملك الورقاء " جلقامش " ،رسالة يفهم منها ان " اجا " يطلب من جلقامش ان تخضع الورقاء لسلطان مدينة كيش او تتحمل مغبة الرفض . فيحمل جلقامش الرسالة الى مجمع "الشيوخ " ويحاول اقناعهم برفضها واعلان الحرب على مدينة كيش :

" دعونا لا نخضع لبيت كيش ،دعونا نضربها بالسلاح " . ولكن المجمع يخالف جلقامش في رأيه ويفضل التسليم لكيش لمنع اعلان الحرب . ولم يكتف جلقامش بجواب مجمع الشيوخ بل يلتجئ الى " مجمع الرجال " ويقصد به جميع الذكور المحاربين

---

١. Kramer, From the Tablets of Sumer, p. 26.

٢. Jacobsen, Thorkild, Et. La. Before Philosophy, Harmondsworth, Middlesex, Pelican Books, A 198. p. 141.

ويعيد امامهم طلبه بوجوب اعلان الحرب على مدينة كيش . وكان جواب مجمع الرجال مؤيدا لطلبه باعلان الحرب فيبتهج جلقامش لذلك ويعلن الحرب . ولكن سرعان ما تمكن اجا من محاصرة مدينة الورقاء واحتلالها . وتنتهي المعركة بغلبة مدينة كيش وطلب جلقامش الصلح .[١]

لا يمكن اثبات صحة هذه القصة تاريخيا اذ انها قصة اسطورية قد لا يكون لها نصيب من الصحة . وعلى افتراض صحتها فان هذا النوع من التشاور بين الرجال الكبار والمحاربين ليس غريبا عن حياة القرى حتى في العهد الحاضر في الشرق العربي . ولا شك ان تقسيم السلطة بين مجلسين محددي الصلاحيات ، كما يفعل كرمر ، من شأنه ان ينقل الى ذهن القارئ في العصور الحاضر صورة مبالغ فيها عن ديمقراطية الحكم في ذلك العهد السحيق من الزمن .

بالاضافة الى هذا فان شيئا من هذا التقسيم في السلطة السياسية بين مجمعين لم يعرف في الحروب التي دارت بين دول المدن . وخاصة بين مدينتي اومّا ولجش في عصور فجر السلالات . ولا توجد اية اشارة الى الرجوع الى مجالس من هذا النوع عند اقرار الحرب او السلم او امور هامة اخرى . لهذا فان وصف عهد دول المدن " بالديمقراطية البدائيه " ، والقول بوجود مجمعين يديران الحكم بالتعاون هو قول يدعو الى الشك الكبير .[٢]

ثم انه عرف عن الحضارة السومرية طابعها الديني العام ، ولهذا يمكننا الاستنتاج

---

١. Kramer, Gilgamesh & Agga, A.N.E.T., Pritchard (ed.), p. 45.

٢. انني مدين بهذا الرأى الى الدكتور ديمترى براميكي من مقابلة شفهية .

ان طابع الحكم في عهد دول المدن كان اقرب الى الحكم الديكتاتوري منه الى الحكم الديمقراطي . ولا يعني هذا انتفاء الاحتمال بان الكاهن او الحاكم كان يستشير ويتعاون مع بقية الكهنة او الرجال في المدينة ولكن لا شك ان كلمته كانت هي العليا دائما .

لقد كانت الملكية (Kingship) في بلاد الرافدين نظاما مختلفا عنها في مصر حيث كان الفرعون هو الاله نفسه . واما في ما بين النهرين فلقد كان الاله هو مالك البلاد الحقيقي ، وما الحاكم او الملك الا وكيل الالهة . ويظهر هذا من مقدمة شريعة لبت عشتار التي جاء فيها :

"عندما اعطى انو العظيم ، اب الالهة ، وانليل ، ملك البلدان جميعها ، الملكية لبلاد سومر واكاد ، عندما دعا انو وانليل ، لبت عشتار ، الراعي الحكيم ليقود بلاده وليقيم العدالة فيها . وليجلب الخير للسومريين والاكاديين عندها قمت انا ، لبت عشتار ..."[1]

ان سكان ما بين النهرين القدماء لم ينظروا الى الملكية او الدولة البشرية كمؤسسة سياسية قائمة بذاتها ومستقلة عن سواها ، بل فهموا الحياة البشرية كلها كجزء من شبكة واسعة تتعدى حدود المجتمعات المحلية او القومية حتى تبلغ اعماق الطبيعة والحياة . وهذه الشبكة الواسعة كانت بالنسبة لهم هي الدولة الحقيقية دولة الكون (Universal State) التي تشمل كل ماله كيان في العالم ، البشر والحيوان والحجارة ، والافكار كذلك . اما كيف بامكان هذه الاشياء كلها ان تكون اعضاء

---

١ . Kramer, Lipit Ishtar Law Codes, A.N.E.T., p. 159.

في دولة ما ،فذلك لان لكل منها ارادة وشخصية وقوة . فالنهر مثلا اذا لم يفـــض ، فذلك لانه يرفض ان يفيض ، والارض حين تجدب ،يعـني انها ترفض الاخصـــاب لاسباب كامنة في ذاتها . وهكذا يصبح قول ارسطو"ان الناس يتصورون ليس فقـــط شكل الالهة على شكلهم هم ، ولكن كذلك الـطرائق التي تتصرف بها الالهة انهـــا تشبه طرائق تصرفهم هم" ،منطبقا على سكان ما بين النهرين ١.

ولكن مع ان كل الاشياء في الكون هي اعضاء في دولة واحدة ، الا ان هؤلاء الاعضاء لم يكونوا على مستوى سياسي واحد . والفاصـل الذى يقرر مكانة عضو ما في دولة الكون هو مقدار ما يملك من قوة . فالقوى الطبيعية التي كانت توحي للانسان الرهبـــة والخوف ، كالسماء والعواصف والارض والماء ،كانت تعتبر آلهة لديه ، والآلهة هـم المواطنون الحقيقيون في دولة الكون ، ومنهم يتكون المجمع (Pantheon) العـــام الذى يدير الدولة . ٢

بهذا المعنى يصبح النظام الكوني ،تنـاسق قوى وارادات مختلفة تقوم بمهامها بشكل ديمقراطي وتعاوني . ولكن في هذا النظام الديمقراطي ،كما في الديمقراطيـــة الاثينية، كان الاشتراك في الحكم من حق الاغلبية من الاعضاء ، وليس من حق الجميـــع فكما كان العبيد والاولاد والنساء الى حد كبير ، في دولة المدينة الاثينية وفي دولـــة المدينة السومرية ،لا يملكون حق الاشتراك بالحكم ، كذلك كانت الحال بالنسبة لدولة الكون . فالانسان في دولة الكون لا يملك قوة سياسية ولهذا لم يكن له حق بالحكـم . وهكذا يصبح مركزه في دولة الكون مشابها لمركز العبد في دولة المدينة اى مقتصرا على

---

١. Jacobsen, et. la. Before Philosophy, p. 148.

٢. Ibid., p. 149.

خدمة الالهة وتأمين راحتها .[١] بهذا الاعتبار لم يكن هناك انفصال بين مؤسسة الدولة البشرية في ما بين النهرين وبين مؤسسة الكون كدولة تامة ، ولهذا كانت الدولة البشرية تعني لهم مؤسسة تهدف اولا واخيرا الى خدمة الالهة ، اى انها وسيلة الانسان الى مشاركة الالهة - وبالتالي قوى الطبيعة ، في عملها .

في هذا المجال ، ما هي دولة المدينة اذن (City State) ؟ وما هو مبرر نشوئها ؟

باعتبار ان المدينة كانت هي النطاق الاجتماعي الاتم الذى من ضمنه كان سكان ما بين النهرين ينظرون الى العالم من حولهم ، ومن ضمنه يعبرون عن معتقداتهم كان لا بد ، حين دعت الحاجة الى قيام نظام سياسي ، من ان يتخذ هذا النظام المدينة حدودا لكيانه . وهكذا عرفت دولة المدينة كاول نمط للحكم ، بمعناه السياسي الحديث ، في ما بين النهرين .

ولكن دولة المدينة كانت ، بالنسبة للسومريين ، مؤسسة ثانوية ضمن دولة الكون ، غايتها الرئيسية تأمين الخدمات الاقتصادية للالهة ، وبالتالي لوكلائها الكهنة ، وتدلنا الوثائق ان اكثر اراضي دول المدن كانت في منتصف الالف الثالث ق.م . من ممتلكات المعابد ، يعمل فيها الناس لقاء حصة معينة خدمة للالهة . وبهذه الطريقة يقوم الانسان عمليا بخدمة اله المدينة ، من خلال قيامه بخدمة وكلائه ، اذ يؤمن الاله المدينة ، وهو المواطن في دولة الكون ، الطعام والملبس والمأوى ، كيما يتمكن من ان يحيا الحياة التي تنسجم مع مهمته ، وتؤمن مسير الكون بصورة طبيعية . وبهذه الطريقة تدعم دولة المدينة القوى العاملة في الكون وتؤمن قيامها بمهامها بافضل وجه ممكن ،

---

١. Ibid., p. 162.

وهذا هو دور دولة المدينة ضمن دولة الكون.[١]

غير انه الى جانب دولتي المدينة والكون كان السومريون يؤمنون بوجود دولة اخرى تختلف عن دولة المدينة ، بانها امتداد سياسي لدولة الكون ، اذ ان مهمتها الرئيسية هي مهمة سياسية بينما مهمة دولة المدينة هي مهمة اقتصادية بالدرجة الاولى . ذلك لانها ترتكز ليس الى مواطن في دولة الكون ، بل الى اله مسؤول في دولة الكون . هذه الدولة هي الدولة القومية (National State)

لايضاح مهام وطبيعة الدولة القومية هذه ، لا بد من العودة الى تبيان تركيب دولة الكون بتفصيل اكثر . فالهيئة الحاكمة في دولة الكون هي مجمع الالهة ، كما مر قبلا ، وآن هو رئيس هذا المجمع ، بينما انليل هو السلطة التنفيذية وقائد الجيش . ولكن انليل ليس ممثل السلطة التنفيذية الوحيد ، اذ ان المجمع قد ينتخب ايا من اعضائه ليقوم مكانه وعندها يقوم بمهامه كاله في مجمع الالهة ، بينما على الارض ، يقوم بتنفيذ ارادة المجمع بواسطة احد خدامه البشر ، الذى يكون هو حاكم المدينة الاقوى بين مدن ما بين النهرين . وهذا الحاكم باعتباره سيد المدينة الاقوى ، يكون كذلك سيد حكام دول المدن الاخرى . فمثلا عندما تسلطت مدينة كيش في منتصف الالف ق.م . على بقية مدن ما بين النهرين ، فان الهة كيش ، التي تدعى انانا ، كانت هي رئيسة القوة التنفيذية في مجمع الالهة ، اى انها احتلت مكان انليل ، ولكن عندما سادت مدينة اور فذلك يعني ان الهها ناننا كان قد انتخب مكان ابيه انليل .[٢]

---

١. Ibid., p. 206.

٢. Ibid., p. 208.

بهذه الطريقة كانت الدولة القومية (National State) تأخذ مكانها باستمرار الى جانب دولة الكون(Universal State) من جهة ودولة المدينة (City State) من جهة اخرى . وفي الواقع انه رغم تعدد المنازعات بين دول المدن السومرية فلقد كانت هذه المدن جميعها تتغنى بولائها لاله واحد هو انليل ، قائد قوى دولة الكون . وكانت تلتقي جهات البلاد كلها التي عرفت بولائها لانليل ، كدولة قومية واحدة، كما يظهر من انشودة (انوكار وبلاد اراتا) ، او انشودة العهد الذهبي .[1]

" في تلك الايام ، كانت شبور ،وهمازى
" وسومر المتعددة (؟) - الالسن ،البلاد العظيمة مصدر الشرائع المقدسة .
" وأورى ، البلاد التي تملك كل ما تحتاجه
" وبلاد مارتو ، المستقرة في امان .
" والعالم كله والجميع بصوت واحد
" يقدمون الحمد لانليل ،بلسان واحد . "[2]

من هذا يظهر ان انليل كان الها قوميا لا محليا ، ولهذا السبب نرى ان مدينة

---

١. Kramer, From the Tablets of Sumer, p. 259.

٢. يظهر من هذه الانشودة ان سومر كانت تشكل الحدود الجنوبية للعالم ،وشمالي سومر تقع بلاد اورى التي تشمل اكاد واشور . وشرقي سومر تقع شبور وهمازى التي تشمل غربي ايران . والى الغرب والجنوب الغربي من سومر تقع مارتو (Martu) التي تشمل الارض الواقعة بين نهرات الفرات والبحر الابيض المتوسط ،وبكلمة اخرى ، ان حدود العالم للسومريين ،وبالتالي الدولة القومية التي يرأسها انليل ،كانت تمتد من مرتفعات ارمينيا شمالا حتى الخليج الفارسي جنوبا ،ومن المرتفعات الايرانية شرقا حتى البحر الابيض المتوسط غربا ،وهي المنطقة التي اطلق عليها هنري بوستد اسم "الهلال الخصيب" .

" نفـر " ،التي كانت تحتوى على نصبه الرئيسي ،كانتتحتل مركزا ساميا في نفوس السومريين ، رغم انه ليس لها قيمة سياسية او تاريخية هامة . هذه الحقيقة قد قوت الروابط التي تعمل لوحدة البلاد السياسية ، اذ ان اى قائد ،اذا انتصر في قهر المدن الاخـرى ، كان يعتبر عميلا لا نليل . ونرى انه منذ فجر التاريخ حصل نزاع بين مدينتي لجـش واوما ، فاعتبر هذا النزاع انه نزاع بين الهي المدينتين . ولهذا رفع النزاع الى مجلس انليل في نفر ليحكم فيه . وقد اعطى انليل حكمه بواسطة مسيليم ، عميل انليل في ذلك الوقت ، الذى كان ملك مدينة كيش .وكان ان رضـخت المدينتان لحكم انليل .[1]

طبيعي ودولة المدينة ،والدولة القومية كلتاهما مرتكزتان الى قوة الهيـة ان يكون الكهنة اول فئة تنتدبها الالهة لتمثيلها بين الناس وادارة شؤون المدينـة ، ولهذا السبب كان المعبد قلب دولة المدينة وقوتها الموجهة ،كما كانت اول حكومة نشأت في بلاد ما بين النهرين "حكومة كهنة " . ولكن مع اتساع نطاق الدولة ،وتعقد شؤون المجتمع وقيام الحروب بين مدينة واخرى ،كانت السلطة تنتقل تدريجيا الى ايد غير دينية وكانت المدينة خلال الحرب او الازمات الحادة تضع قيادتها بين ايدى رجل يستطيع قيادة الجيش وحماية المدينة . والسبب في ذلك ان مبدأ " الديمقراطية البدائية " الذى كان متبعا في العهد الشبيه بالكتابي وماقبلـه ،لم يعد منسجما مع متطلبات المجتمـع السومرى في عهد السلالات الاولى حين اقتضت احوال المجتمع آنذاك ،ان يتاجر السومريون مع بلدان بعيدة حيث تكثر المواد الخام كالحجارة والمعادن ، كما اقتضت ان تبقى كل مدينة على حذر من المدن الاخرى . والتجارة تستلزم توفر عوامل متعددة كالتنظيم الاجتماعي وابتداع وسائل المواصلات وحماية الطرق ،كما ان الاستعداد العسكـرى يقتضي ادارة حاسمة . " والديمقراطية البدائية "لا تصلح للحكم في حالات كهـذه

---

١. Jacobsen, Op. Cit., p. 210.

لما تقتضيه مثل هذه الحالات من اتخاذ قرارات حاسمة وسريعة . لا سيما وان مبدأ الاكثرية والاقلية لم يكن معروفا لديهم . ولهذا كان من الصعب الحصول على قرار اجماعي في حالة اتباعهم لنوع الحكم الذى عرف بالعهد الشبيه بالكتابي وما قبله . فتوصل السومريون الى خطة عامة اتبعوها عند نشوب الازمات او الحروب ، وهي ان تضع المدينة نفسها، كما فعلت الجمهورية الرومانية بعد وقت طويل ، تحت قيادة قائد ديكتاتورى تمنحه ولاءها . وكان المعروف ان هذا المركز هو مركز وقتي ، وان السلطة يجب ان تعود بعد انتهاء حالة الطوارئ الى الحاكم الاصلي - اى الى الكاهن الحاكم . غير ان تطور اوضاع المجتمع السومرى جعل مدنه في حالة طوارئ دائمة ذلك لان امور الرى وحقوق المياه والمزروعات اصبحت مصدر نزاع دائم بين مختلف المدن ، ولهذا تطور مركز القائد هذا من مركز وقتي الى مركز دائم .[1]

كان الحاكم في العهد الشبيه بالكتابي يلقب بالايشاكو (Ishaku) او الانسي (Ensi) او الباتسي (Patesi)، وهي كلمات تعنى ان السلطة مستمدة من اله المدينة . ولكن عندما ثبت مركز القائد الذى يتولى مهمات الحكم في الازمات اصبح يلقب بـ " لوجال " (Luggal) التي تعني " الرجل العظيم " ، دلالة على خطورة المهمة التي كان يقوم بها . وكان لقب الانسي كذلك يطلق على رجل الدين اذا ما تولى السلطات في حالة الازمات ، ولكن بصورة تدريجية اخذ لقب " لوجال " يعم على اللقب الديني ويحتل مكانه .

اللوجال او الانسي كان يتصرف بالنيابة عن الحاكم الحقيقي للمدينة الذى هو اله المدينة . وكانت مهمته اساسا تنسيق مجتمعات المعابد داخل المدينة

---

١. Frankfort, The Birth of Civilization in the Near East, p. 77.

وتولي شؤون الدفاع ، وتنظيم التجارة والعلاقات الخارجية . وتدريجيا كانت سلطته تقوى وتعلو على سلطة المجالس الاخرى حتى اصبح هو صاحب الكلمة العليا في المدينة . وهكذا اصبح ما كان سابقا مصدر قوة للمجتمع السومرى (اى وحدته ضمن مؤسسة المعبد) مصدر ضعف له ، اذ اصبح المجال واسعا امام اللوجال لاستثمار مركزه في سبيل مصلحته الخاصة .[1]

ولعل من الاهمية بمكان كبير ان نذكر ان اول ثورة اصلاحية ، لعلها الاولى من نوعها في التاريخ قد حدثت في بلاد ما بين النهرين حوالي ٢٥٠٠ ق.م . فقد حكمت في لجش آنذاك سلالة اورنانشة التي اشتهر حكامها بالجشع ، حتى ان بعضهم كان يشن الحروب الاستعمارية باستمرار لبسط السيطرة على بلاد سومر كلها . وكانوا يزيدون الضرائب على سكان المدينة ليؤمنوا مصاريف الحرب ، ويزيدون من تحكمهم بشؤون المواطنين ، ولكن سكان المدينة ، حفاظا على المصلحة العامة، ما كانوا ليحركوا ساكنا اثناء الحرب علما منهم بان قيامهم فيوجه حكامهم آنذاك سيفقدهم الحرب . ولكن ما دعاهم للثورة اخيرا ، هو استمرار حكام سلالة اورنانشة بعد انتهاء الحرب باتباع الطريقة ذاتها ، اذ راحوا يتصرفون باملاك المعبد لمصالحهم الخاصة ورفضوا التخلي عن الضرائب التي فرضوها ايام الحرب " حتى انك " ، كما يقول مؤرخ قديم " اني تلفت في طول البلاد وعرضها كنت ترى محصل الضرائب " . ووصلت الحالة في عهد اخر حاكم من سلالة اورنانشة المدعو لوجالندا (Luggalanda) الى درجة كبيرة من التضعضع السياسي حتى ان مدينة لجش اصبحت مهددة من قبل غريمتها التقليدية اوما . في هذه الحالة من البؤس

---

١. Ibid., p. 80.

ثار اهل لجش وخلعوا لوجالندا ونصبوا مكانه اوروكاغينا، الذى يقول في الكتابات التي تركها ان مواطني لجش كانوا يعون حقوقهم المدنية ويقدسون حريتهم الشخصية والاقتصادية كتراث اساسي وضرورى لحياتهم ، ولهذا عارضوا كل الاجراءات التي من شأنها ان تحد من هذه الحرية ، وثاروا في وجه لوجالندا . ويقول مؤرخ قديم ان اوروكاغينا اعاد الحرية للمواطنين واقام العدالة بينهم ورفع عن كاهلهم الضرائب التعسفية حتى " انك اذا تلفت في طول البلاد وعرضها لم يكن يظهر محصل الضرائب " ، كما انقذ الفقراء من جور الاغنياء ، وحد من قوة الكهنة .[1]

تدلنا قصة الثورة هذه على ما كان يتحلى به مواطنو لجش من وعي لحقوقهم السياسية . ووجود هذا الوعي في ذلك الزمن القصي من التاريخ له اهمية كبرى ، باعتباره الدليل على ان حق الثورة على الحاكم ، رغم كونه وكيلا للالهة ، كان حقا مشروعا حين يسيء استعمال مركزه . اذ ان الالهة حينذاك تكون قد تخلت عن وكيلها ولهذا تصبح الثورة عليه امرا جائزا ان لم يكن ضروريا . ان مهمة الملك الرئيسية هي " تأمين الانسجام والتناسق بين الانسان والكون "[2] وبالتالي بين الانسان والالهة . واساءة الملك لاستعمال مركزه يعني عرقلة منه لاعمال الكون ولارادة الالهة . بهذه الطريقة كان ما بين النهرين يبررون حق الثورة . ان اوروكاغينا عندما ينجح في الثورة ويتسلم الحكم في مدينة لجش ، يذكر في لوحاته انه تعاقد مع

---

١. Kramer, From the Tablets of Sumer, pp. 41 - 46 .

٢. Frankfort, Henri, Kingship & the Gods, (Chicago: University of Chicago press, 1948), p. 3.

نينجروسو [١] على ان يحمي الضعيف وان يضع حدا للمظالم "ويمنع ثور الله من ان يفلح حقول الانسي" كما انه قام بتخفيض الضرائب وترسيخ العدالة بين افراد الشعب. [٢] ونينجرسو هو اله مدينة لجش وبالتالي سيد الملك الذى ثار عليه اوروكاغينا وخلعه عن عرشه . ولكن التعاقد بين اوروكاغينا واله مدينة لجش هو في سبيل قيامه بالمهمة التي اساء سلفه استعمالها ، وهي تأمين الانسجام بين الانسان والكون.

يظهر من التدقيق في مراحل تطور اشكال الحكم فيما بين النهرين ، ان المعتقدات الدينية ، كان لها تأثير جوهرى في تكييف اشكال الحكم باستمرار ، غير انه مع مرور الايام كانت الحاجات الطبيعية والحياتية لسكان ما بين النهرين تبرز كعوامل مهمة تؤثر في انظمة الحكم . يظهر هذا من تحول الحاكم من انسي اوايشاكو ، وهو لقب ديني صرف ، الى " لوجال " ، وهو لقب يغلب عليه الطابع المدني ، وكذلك من النظر الى الحاكم كوكيل للاله يفترض من الناس تقبل كل ما يأتي منه ، الى احتمال رفض ما يأتي منه ، كما حدث في مدينة لجش ، حين يتخطى الحاكم حدود مهمته .

هذه هي مظاهر الحياة في سومر ، من مناحيها الثلاث - الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . والسؤال الذى نقف على عتبته الان هو ، ما هي الاسس الفكرية والايمانية لهذه المظاهر ؟ ما هو السبب في ان الحياة السومرية اتخذت هذه المظاهر في مختلف حقول الحياة ؟

الفصل التالي سيحاول الاجابة على هذا السؤال.

---

١. يدل هذا على ان الحرب بين مدينتين لم تكن حربا بين الهي المدينتين ، بل ان اله المدينة المقهورة حين يغضب على وكيله ، يضعه تحت سلطة وكيل المدينة المنتصرة .

٢. باقر ، طه ، نفس المصدر السابق ، ص ٣٨٣ .

الفصل الثالث

الفلسفة التربوية عند السومريين

أ ـ نظرة السومريين الميتافيزيقية

ب ـ نظرة السومريين الابستملوجية

جـ ـ نظرة السومريين الاكسيولوجية

الفلسفة التربوية عند السومريين والاكاديين

سنتطرق في هذا الفصل الى فلسفة السومريين والاكاديين ونظرتهم الى العالم من نواحيها الميثافيزيقية (فلسفة ما بعد الطبيعة) ، والابستملوجية (فلسفة المعرفة والمنطق) ، والاكسيولوجية (فلسفة المناقب) . وسنشدد في بحثنا لهذه النظرة على ما له انعكاس او ارتباط بالتربية .

الميثافيزيقيا السومرية

يقصد بالميثافيزيقيا هنا النظرة الى طبيعة الوجود النهائية ، والى طبيعة الكينونة (Ontology) وموقف الانسان بالنسبة الى الكون ولحقيقة الوجود . والواقع ان الميثافيزيقيا بهذا المعنى قد احتلت حيزا كبيرا من تفكير السومريين ، يظهر في اساطيرهم المتعددة التي كانت بمثابة المرتكز اليقيني لهم كما هو الدين بمعناه الميثافيزيقي للانسان الحاضر . فعندما تطلع السومريون الى العالم حولهم اول ما تطلعوا وشاهدوا الشمس هذه الكتلة النارية المشعة ، تشرق في كل صباح لتغيب في كل مساء ، والسماء ، هذه القبة الزرقاء ، ترمي اطرافها حول العالم ، احيانا تشع في بهاء واحيانا تكفهر بالعواصف والغيوم وتنزل المطر ، فتحول الارض اليابسة الى بحر من الوحل يربط اقدام الناس ويمنعهم من السفر . احيانا يتلألأ في كبدها القمر وتلمع النجوم واحيانا يختفي القمر ويغمر العالم ظلام دامس . عندما شاهدوا مياه دجلة والفرات تجري احيانا بهدوء وامان واحيانا اخرى تفيض فتغمر الحقول وتدمر القرى والمنازل . عندما شاهد انسان مابين النهرين كل هذه المظاهر احس بضعفه امامها واخذت عليه مجامع تفكيره واهتمامه ، فراح يتساءل عن مصدرها وطبيعتها وهدفها وينظر الى نفسه من

خلال هذه الاحداث محاولا استشفاف حقيقتها ومبرر وجوده بين هذه القوى الهائلة . وابتدأ يبحث عن تفاسير يقتنع بها لصفاء السماء وهدوء الرافدين حينا وثورتهما احيانا اخرى . وكان من الطبيعي ان تأتي تفاسيره منسجمة مع اختباراته مع سواه من الناس والطبيعة ، هذه الاختبارات التي كانت ما تزال في خطواتها الاولى . فلم يكن قد توفر لهم نبي مثلا ينبئهم بوجود اله واحد وينقل اليهم ارادته ، او عالم ككوبرنيكس او غاليليو او سواهما يفسرون لهم الظواهر الطبيعية . ولهذا كان لا بد لهم لافتقارهم الى بينات العلم الحديث (Scientific Data) من ان يلجوا طريق المعرفة بالوسائل المتوفرة لديهم انذاك، وكانت اهم هذه الوسائل التأمل الفكري (Speculative Thought) حول العالم والكون والخلق وسواها من الامور التي شغلت تفكيرهم ، وهذا التأمل الفكري سهل لانسان ما بين النهرين ان يكون نظريات وتفاسير متعددة كان يغلفها باطار شعري ، اسطوري (Methopoetic) وينقلها من فم الى فم ومن جيل الى جيل حتى اصبحت تجسد مجموع المعتقدات الدينية التي آمنوا بها . والاسطورة من حيث هي نتاج للتأمل الفكري لا تختلف ، جوهريا ، عن نتائج العلم الطبيعي . اذ ان العلم في تعريفه الشامل هو البحث عن الحقيقة بشكل منطقي متسلسل بقصد الوصول الى نتائج يقبل بها العقل وتصبح موضع يقينه . والاسطورة ، بالنسبة للسومريين كانت هي النتيجة التي توصلوا اليها بعد ان حفزهم توق كبير الى اكتشاف المجهول ، فاتخذوا في البحث عنه طريقا تختلف كليا عن طريق العلم الطبيعي ، ولكنها توصل الى الغاية نفسها .

من شروط العلم ان يكون البحث عن الحقيقة بحثا منطقيا متسلسلا محددا بشروط معنية ، ولكن الواقع ان بحث السومريين عن الحقيقة كان في احيان كثيرة يفتقر الى هذا التسلسل المنطقي . بالامكان من هذا القبيل رد القول ان الاسطورة هي نتاج علمي . ولكن لا شك ان الغاية الاخيرة من العلم الوصول الى حقيقة ما يقبل بها العقل - قد تأمنت للسومريين في الاسطورة . يضاف الى هذا ان عدم تحديد التفكير

التأملي بمنطق معين ، ترك مجالا فسيحا امام سكان ما بين النهرين للانطلاق عبر اغوار فكرية بعيدة والتطرق الى اسئلة صميمية لا تزال هي ذاتها موضع تساؤل المفكرين والعلماء في العصر الحاضر . لقد كان السومريون يفقدون في احيان كثيرة سيطرة المنطق على تصوراتهم ويشردون في الخيال اللامعقول ، كل ذلك بغية الوصول الى حكاية اسطورية تجيب عن سؤال يقلق نفوسهم ويوفر لهم اليقين العلمي الذى يطلبون . ان الاختلاف الجوهرى بين طبيعة الاسطورة كنتاج علمي ، عن طبيعة النتائج العلمية التي يتوصل اليها العلماء في العصر الحاضر ، هو اختلاف في الوسيلة لا في الغاية . " ان ما يفرق تفسير القدماء لمظاهر الكون عن تفسيرنا حاليا ، ليس اشكال الفكر وقواعد التحليل ولكن الحقائق او البينات التي يعتمدها الفكر . وعندما نفهم البينات التي اعتمدها القدماء في نظرتهم الى الكون يصبح بامكاننا ان نضع انفسنا مكانهم وان نفكر بافكارهم ونشعر بمشاعرهم . "[1]

هذا الاختلاف في الوسيلة يظهر في اعتماد العلم تنظيم الحقائق والافكار للوصول الى الحقيقة ، بينما تعتمد الاسطورة اعتمادا اكثر على تنظيم المشاعر للوصول الى الغاية نفسها .

مهما تكن الحال فان تأليف الاساطير يعني ان الانسان قد انتقل من مرحلة الاحساس بقوى العالم الخارجي ، اى من المرحلة المستكنية او التقبلية (Passive) الى مرحلة التعبير عن احساسه ، وبالتالي مرحلة تنظيم مشاعره وفكره (Active) ، وهو بهذا يحاول تخطي الاختبارات الحسية كيما يقدر ان يفسر هذه الاختبارات ويوحد فيما بينها وينظمها .

---

١. Cassirer, Ernest, The Myth of the State, (London: G. Cumberlege, Oxford University press, 1946), p. 9.

فحين احس الانسان السومري بضخامة الكون وجبروت القوى الطبيعية ، واحس بان مصيره مرتبط بهذه القوى ، المرئي منها وغير المرئي ، راح ينظم مشاعره وفكره تجاه الكون ، بقصد ، لا ان يصل الى حقيقة الكون وحسب ، بل الى حقيقة نفسه ومكانه بالنسبة للكون . ان انتقال السومري من اعتماده مجرد الحس في علاقته مع العالم الخارجي الى اعتماده الفكر المجردة في تعبيره عن هذه العلاقة ، من الفكرة الواضحة المحددة (Concrete) الى الفكرة المجردة (Abstract) وتنظيمه هذه الفكر بشكل متسق ، يمثل تطور الانسان من المرحلة البدائية في التفكير ، التي يغلب عليها طابع الحسية الى المرحلة الراقية التي تمتاز بطابع الرمزية .

انطلاقا من المحدد الواضح الى المجرد العام ، او بكلمة اخرى من المعلوم الى المجهول ، قدر السومريون انه لا بد من وجود قوة تسير هذا الكون وتحفظ نظامه . فلقد رأوا ان المدن والدول ومختلف المؤسسات الاجتماعية تدار بواسطة كائنات معينة . ولهذا لا بد من ان يكون لهذا الكون ، هذه الدولة الكبرى ، اشخاص ذوو قدرات خارقة يديرونها ، ولا بد ان يكون هؤلاء الاشخاص خالدين ، اذ انهم لو كانوا يموتون لاختل نظام الكون . وكما يعمل الملك بالتعاون مع معاونين له ، فهؤلاء الاشخاص يعملون بشكل متعاون ضمن مجمع (Pantheon) يرأسه الاكثر قوة بينهم . وبالرغم من عدم رؤية هؤلاء الاشخاص بالعين ، فلا بد ان هناك قوانين ومخططات عامة مدروسة دعاها السومريون بـ (Me) يسيرون عليها في ادارة الكون .

ولكن كيف كان هذا المجمع المقدس يعمل ؟

في مجمع الالهة كانت القوة التي تعلو على سواها ارفع من سواها مرتبة . فالسماء تعلو على كل شيء ، ولا يمكن لاحد ان يهرب من ناظريها ، ولهذا هي القوة العليا .

وللسماء سلطة وجلالة ،فهي بمجرد وجودها تنتزع الولاء من الانسان . فاله السماء اذن هو الاله الاقوى ،ولهذا هو الاله الاسمى مرتبة .[١] ويدعى بالسومرية آن (An) وبالاكادية آنو. ولهذا فان آن هو رأس الالهة وملك المجمع المقدس . ان الالهة الكبار يخاطبونه في قصيدة " صعود اينانا قائلين :

" يا آنو ، ان اوامرك العظيمة تعلو على كل شيء
" من يقدر ان يخالفها ؟
" يا ابا الالهة ، ان اوامرك ،
" هي اساس السماء والارض
" اى اله يقدر ان يخالفها ؟ "[٢]

لقد بقي آن يعبد في سومر الاف السنين وفي القصص البابلية ورد اسمه مرات متعددة . ففي قصيدة "اينوما اليش " ،اى قصة الخليقة، ينشد الالهة نشيدا ينصبون فيه مردوخ سيدا للآلهة قائلين له " كلمتك هي آنو " .[٣] ان ارادة آن او آنو هي بمثابة قوانين الطبيعة للانسان الحاضر.

يلي آن في السلطة اله الفضاء والرياح انليل (Enlil) . وقد بزت سلطة انليل حوالي عام ٢٥٠٠ ق.م. حينما كانت سلطة آنو تتوانى . ان ارادة آن هي الدستور وهو الذى يدير اجتماعات الالهة . ولكن عندما تريد الالهة ان تنفذ ارادتها

---

١. Jacobsen, et. la., Before Philosophy, p. 151.

٢. Ibid., p. 153.

٣. Speiser, E.A., The Creation Epic, A.N.E.T., Pritchard (ed.), p. 61.

فان انليل يظهركالقائد الاعلى ويغيب آن عن المسرح . ان انليل هو حامي الكون ضد قوى الغوضى ، وله شبكة مقدسة يحبس فيها كل من يشهد زورا او يحنث بقسمه . وانليل هو حامل الواح القدر ،اى انه قادرعلى التحكم بمصائر البشر .[1] لقد امتاز انليل بسلطان واسع باعتباره سيد الرياح والغضاء (وللرياح اهمية قصوى في بلاد ما بين النهرين) ، وقد عرف بالقسوة وقوة التدمير ،وبان كلماته لا تجلب غير الشر . ولكن على العكس فان اللوائح التي عثرعليها حديثا تدل على انه كان الاله الذى يشيع الغنى والثروة في البلاد وهو الاله الصديق الذى يؤمن سلامة وخير البشر جميعا خاصة السومريين ، كما يظهر من هذه القصيدة :

" انليل ،من لا حدّ لارادته ،من كلمته مقدسة ،
" الاله الذى لا يتبدل قوله ، من يقرر المصائر ابد الدهر ،
" غير المستقيم ، الشرير ، الظالم ،
" ال ... النمام ،
" المتعجرف ،الذى ينقض العهود ،
" لا يسامح شرورهم في المدينة ،
" الشبكة العظيمة .... ،
" لا يترك الاشرار والخبثاء يتفلتون منها ،
" بدون انليل ، الجبل العظيم ،
" لا تبنى مدن ،لا تؤسس مواطن ،
" لا ينصب ملك ، لا يولد كاهن كبير ،

---

١. Jacobsen, et. la., Before Philosophy, p. 157.

" العمال لا يكون لهم مراقب ولا مفتش ،... ،

" الانهر - مياهها لا تفيض ،

" سمك البحر لا يبيض في اجمة القصب ،

" طيور السماء لا تبنى اعشاشها على الارض الفسيحة ،

" والغيوم المتسارعة في السماء ، لا تنزل المطر ،

" النبات والاعشاب ، مجد السهل ، لاتنمو ،

" في الحقل والمرج الحنطة الغنية لا تزهر ،

" الاشجار المزروعة في الغابات الجبلية لا تثمر ... "[1]

ولكن انليل يثور ايضا . ان مدينة اور عندما تجتاحها قبائل العيلاميين فان هذا الاجتياح هو انليل ، هو ارادة الالهة تتجسد بالعاصفة ولهذا تسقط المدينة :

" العاصفة التي اثارها انليل بغضب ، العاصفة التي تهدم البلاد ،

" غطت اور كالقماش ، غلفتها مثل ثوب من الكتان " [2]

ولهذا فالانسان يظل تحت رحمته . ولهذا يخاطبه الشاعر :

" انليل يا ابتاه يامين عيناه تقدحان (شررا)

" الى متى - حتى تهدأن بسلام ؟ " [3]

---

١. Kramer, From the Tablets of Sumer, pp. 87 - 88.

هذه بعض ابيات القصيدة وليست كلها .

٢. Jacobsen, et. la., Before Philosophy, p. 155.

٣. Ibid., p. 157.

يلي انليل في السلطة انكي (Enki) ويعرف بالاكادية بآيا (Ea) . وانكي هو اله المياه العذبة سيدة الارض . لقد عرف سكان ما بين النهرين المياه في اعمال الرى ، رأوها تجرى بدهاء بين المنعرجات تتجنب العقبات حتى تصل الى هدفها ، فرسخت في ذاكرتهم كمثل للحكمة والذكاء . ان انكي هو منظم الارض حسب قرارات الالهة . هو الذى يعطي الملوك والحكام المعرفة والفهم .[1] هو الذى علم الانسان الكتابة والحكمة . وقد اشتهر انكي بصداقته للانسان ، فهو الذى افشى الى اوتونابشتم اسرار الالهة عندما قررت احداث الطوفان .[2] انه عندما يقرر مصير سومر يقررها على الشكل التالي :

" يا سومر ، ايتها الارض العظيمة ، بين اراضي الكون ،

" يا مليئة بالنور الثابت ، الناشرة من طلوع الشمس الى مغيبها ،

" الشرائع المقدسة (لجميع) الشعوب ،

" ان شرائعك المقدسة هي شرائع سامية ، لا يبلغ مثلها احد ،

" قلبك عميق ، لا حدود له ،

" العلم الحقيقي الذى تأتين به ... ، كالسماء لا يمس ،

" مليكك هو الجبل العظيم ، الاب انليل ، ... ،

" الاناوناكي ، الالهة العظام ،

" اتخذت مساكنها في وسطك ،

" بين جنائنك الفسيحة تستنفد طعامها ،

" يا بيت سومر ، لتتكاثر عنا برك ، لتتكاثر ابقارك ،

" لتتكاثر حظائر غنمك ، لتتكاثر نعاجك بعشرات الالوف ، ... ،

---

١. Jacobsen, et.la., Op. Cit., p. 160.
Kramer, From the Tablets of Sumer, p. 89.

٢. باقر ، طه ، نفس المصدر السابق ، ص ٢٤٧ .

" ولترفع هياكلك الثابتة ايديها نحو السماء .
" ولتصنع الانوناكي مصائر البشر في ارجائك ."[1]

بالاضافة الى الثالوث الاول - آن وانليل وانكي - هناك آلهة رابعة بالغة الاهمية هي نينهرساج (Ninhursag) اوكي (Ki) بالاكادية ، الارض[2]، وتعرف ايضا باسم نينما (Ninma) "السيدة الرفيعة" . ومن المحتمل انها كانت زوجة آن اى السماء . السماء والارض آن - كي يمثلان الكون كله ، وكلمة الكون بالسومرية هي آن - كي . وباعتبار ان الارض والسماء كانتا قبلا جسما واحدا فان انليل هو ابن السماء والارض وهو الذى ينفذ ارادة والديه اللذين لا يتحركان بل يوكلان الى ابنهما تنفيذ ارادتهما .[3] ان جميع الالهة هم في الواقع نتيجة تزاج الالهين الارض والسماء . وتعتبر الارض والدة كل ما هو حي . انها "السيدة التي تعطي الولادة".[4] انها تعطي الخير في كل سنة للنبات في حقول سومر . "الحنطة ، الغادة الربيعية، تشرئب برأسها من بين اثلام الحقل" . الولادة ، الحياة الجديدة - هذا ما تمثله الارض . وهي تظهر في النقوش بشكل امرأة ترضع طفلا . والارض باستطاعتها ان توقف الولادة والخلق في البلاد كلها . ان لها ارادة خاصة بها ، كبقية الالهة ، واذا ما امتنعت عن الولادة ، فان البلاد كلها ، النبات والحيوان والانسان يصيبه القحط والخراب والفناء .

---

١. Kramer, From the Tablets of Sumer, p. 89.

٢. يضع جاكوبسن الارض في المنزلة الثالثة في مجمع الالهة ، بينما يضعها كرمر في المنزلة الرابعة ، اى خلف الثالوث الاول . ولكن المرجع ان الثالوث المقدس يشمل الارض، اى انه يتألف من آن ، وانليل ، ونينهرساج ، اوكي .

٣. Radau, op.cit., p. 37.

٤. Kramer, From the Tablets of Sumer, p. 91.

الى جانب الثالوث الاول ،هناك ثالوث آخر يرأسه الاله القمر سن او نانار (Nannar)(Sin) . ثم يليه الاله الشمس اوتو (Uttu) ،وبعده انليل اله المناخ والطقس .[١] اشتهر الاله القمر بالحكمة ،وهو ابن انليل اله الفضاء والعواصف. واما اوتو ،اله الشمس فقد اشتهر بالعدالة ، وقد تولد من القمر وانليل .[٢]

بالاضافة الى ذلك فقد عرف السومريون الهة الحب والجمال والخصب المقابلة لعشتار . وقد دعوها باسم ايناننا (Inanna) ومعنى ذلك سيدة السماء .

السماء هي القسم الاول في الكون ، ثم ما بين الارض والسماء هو القسم الثاني . ثم الارض الظاهرة هي القسم الثالث . وما تحت الارض اى الارض السفلى، هي القسم الرابع . والارض السفلى هي مقر ارواح الموتى ويحكم فيها الاله نرجال (Nergal) ومعه زوجته ايرشكيجال (Ershkigal) ويساعدهما مجموعة من الالهة الصغرى وعدد من الشياطين والعفاريت.[٣]

نكتفي بهذا المقدار من تعداد الالهة ،اذ ان عددهم كان كثيرا جدا فلكل ناحية من نواحي الكون والعالم اله . للسماء اله وللارض اله ،للبحر اله وللهواء اله ، للاجرام السماوية ، للريح والعواصف ، للنهر والجبل والسهل ،للدولة والمدينة والقناة والحقل ، لادوات الزراعة كالمحراث والمعول ، لادوات الكتابة كالقلم ،

---

١. انليل هو عضو في الثالوثين . يدعوه باقر العضو الثالث في الثالوث الثاني " ادد " ،ولكن ادد هو اله متأخر، اشورى على الارجح .

٢. باقر ،طه ،نفس المصدر السابق ، ص ٢٥٢ .

٣. باقر ،طه ،نفس المصدر السابق ،ص ٢٥٣ .

لكل من هذه الكائنات اله . وهذه الالهة جميعها لها خصائص الانسان ، تأكل وتشرب ، تنام وتستيقظ ، تتزوج وتلد ، ولكنها خلافا عن الانسان لا تموت .[١] لم يكن هناك فصل بالنسبة للسومريين بين الاشياء الحية وغير الحية في الكون ، اى شيء يمكن الاحساس بوجوده كان جزءا من الكون ، له شخصية وله ارادة وهو بالتالي اله .[٢] لقد خلق الانسان السومرى الاله على شاكلته .[٣]

من هنا ننتقل الى معتقدات السومريين باصل الوجود والاشياء وخلق العالم والانسان . من استشفاف ما وراء ذلك الغلاف الشعرى الاسطورى الذى نسجه السومريون حول معتقداتهم يظهر للباحث المدقق ان الاراء التي كونها اولئك المفكرون القدماء لم تكن بالساذجة البدائية ، بل على العكس كانت محاولات جريئة في التفكير في الكون واصل الوجود والاشياء .

تتضح نظرة السومريين حول خلق الكون من مقدمة لقصيدة تدعى " جلقامش ، انكيدو ، والعالم السفلى " ، وفيما يلي مقدمتها :

" بعد ان فصلت السماء عن الارض ،

" بعد ان فصلت الارض عن السماء ،

" بعد ان لفظ اسم الانسان ،

---

١. Kramer, From the Tablets of Sumer, p. 162.

٢. Jacobsen, et. la., Op. Cit., p. 162.

٣. قابل مع قصة الخليقة في التوراة : "وخلق الله الانسان على شاكلته " . تك : ١ : ٢٧

" بعد ان حمل آن (اله السماء) السماء ،

" بعد ان حمل انليل (اله الهواء) الارض ... "[1]

تتضح من هذه المقدمة النقاط التالية :

(١) كانت السماء والارض اولا متحدتين .

(٢) بعض الالهة كانت موجودة قبل ان تفصل السماء عن الارض .

(٣) الذى حمل السماء هو اله السماء آن ، بينما الذى حمل الارض هو اله الهواء انليل .[2] غير ان هذه المقدمة لا تشير الى من خلق السماء والارض وما شكلهما ، ومن الذى فصل السماء عن الارض . ولكن في مصادر اخرى توجد اشارة الى ان نامو (Nammu) الهة البحر هي "الام التي اعطت الولادة للسماء والارض" ، كما يظهر من قصيدة اخرى في تدشين ووصف المعول ان الذى فصل السماء عن الارض هو انليل .[3]

يتضح من هذا ان نظرة السومريين الى خلق العالم تتلخص بالنقاط التالية :

(١) اولا كان العماء (Primeval Sea)[4] لم يقل شيء عن اصله ومولده . ومن المعقول ان العماء لدى السومريين كان موجودا منذ الازل .

(٢) من العماء تولد "الجبل الكوني" المكون من السماء والارض متحدتين .

---

١. Kramer, From the Tablets of Sumer, p. 77.

٢. Ibid.

٣. Ibid.

٤. العماء هو خليط من الارض والمياه .

(٣) آن - (أى السماء) كان الذكر . كي (اى الارض) كانت الانثى كلاهما الهة بشكل البشر . من اتحادهما تولد انليل اله الفضاء والهواء .

(٤) انليل ، الهواء ، هو الذى فصل السماء عن الارض . وحين حمل ابوه آن ، السماء ، حمل هو الارض ، امه .

(٥) من اتحاد انليل مع الارض ، امه ، اى الارض يحيط بها الهـــواء والفضاء ، تكون المسرح الذى نشأت عليه جميع الكائنات الحية - الانسان والحيوان ، والنبات ، وعليه نشأت المدنية .[١]

ان عملية خلق العالم اذ ن كانت تجرى بصورة الولادة ، كائن معين يلـد كائنا اخر . ان قصة (تليمن) مثل واضح على عملية الولادة هذه . موجز القصـة ان تليمن (وهي البحرين الحديثة على الخليج الفارسي) كانت من نصيب الالهيـــن انكي ونينهرساج عند تقسيم الالهة للارض . بعد ان قدم انكي المياه الحلوة للبلاد يعرض على نينهرساج ، الارض ، الزواج فيتزوجان . وتحمل زوجتـه نينسار (Ninsar) الهة النبات . ولكن باعتبار ان مياه الفيضان في مابين النهرين ترتد الى النهر قبـل ظهور النبات فان انكي ، المياه ، يكون قد هجر زوجته نينهرساج ، الارض ، قبل ان تلد لهما نينسار . ولكن النبات يظهر عادة على حوافي النهر ، ولهذا فان نينهرساج تضع ابنتها على حوافي انكي ، النهر ، الذى حين يعجبه جمال الصبية الفتيـــة نينسار ، يتزوج منها ، فتلد له خيوط الكتان التي تستعمل في النسيج .[٢]

غير ان هناك انواعـا اخرى من الخلق . ان اهم قصة وردت عن الخلـق

---

١. Kramer, From the Tablets of Sumer, p.78.

٢. Jacobsen, et. la., Op. Cit., p. 171.

في ما بين النهرين هي قصيدة " اينوما اليليش " او " في العلى كان " التي تصف عملية خلق العالم والكون والانسان وما تحتويه هذه العملية من صراع قاس بين الهة الشر والهة الخير ، وبين القديم والحديث . بالرغم من ان هذه القصيدة في شكلها المعروف حاليا تعود الى ازمان متأخرة عن العهد السومري - اذ يرجح انها كتبت في الجزء الاول من الالف الثاني قبل الميلاد ، الا انها تستند الى الميثافيزيقيا السومرية ونظرة السومريين الى الوجود . ولهذا من الهام التعرف اليها في مجال التعرف على معتقدات السومريين ونظرتهم الى اصل الوجود . ونقدم فيما يلي موجزا لهذه القصة :

حينما في العلى لم يكن للسماء اسم ، وفي الدنى لم تكن الارض شيئا مذكورا . ولم يكن في البدء غير "ابسو" (الماء العذب ، اى مياه الانهار) "وتيامت" (الماء المالح) وكانت مياههما مختلطة . ولم يكن قد ولد اى من الالهة ولا ذكرت اسماؤهم ، ثم تولد منهما (من الاله والالهة اللذين يمثلان المياه الاولى) الالهة الاخرى باجيال متعاقبة اولها الهان هما " لخمو " و " لخامو " ، ثم بعد مرور دهور طويلة جاء الى الوجود الهان اخران هما " انشار " و "كيشار " اللذان ولدا الاله " آنو" بعد مرور ازمان طويلة . وقد صار "آنو " غريبا ونظيرا لآبائه الآلهة العتيقة ، وجاء من بعد ذلك الالهة الحديثة الاخرى مثل " ايا " الذى كان متحليا بالمعرفة والحكمة والقوة اكثر من آبائه وبعد حين تحزب جيل الالهة الحديثة واساؤا الى ابائهم الالهة العتيقة ولا سيما الى امهم " تيامت" وابيهم " ابسو". لقد ارادت الالهة الحديثة ان تستبد بشؤون الكون وتنظمه وفق اهوائها . كانت تمثل الحركة والعمل في حين ان الالهة العتيقة تمثل السكون والركود ، فاساء فعلهم "ابسو" اكثر من امهم " تيامت" فعزم على ابادتهم جميعا وارجاع نظام الكون الى سابق عهده وكاد ان يفتك بهم على الرغم من معارضة زوجة "تيامت" . وفي اللحظة الحاسمة يعلم الاله

"ايا " بالخطة المبيتة فيحزم امره ويلتجئ الى سحره المقدس ويؤلف اقوى رقية ويقرأها على الماء (ابسو) فيحل فيه السبات فيكبله ويقتله ويبتني في جسمه (في المياه) بيته ويسكن هو وزوجته فيه . وولد للاله وزوجته ابن هو "مردوخ " [1] الذى كان على اتم ما يكون من كمال الخلق فسر به ابوه وفضله على غيره واعلى قدره على من سواه من الالهة ، وكان خارق القدرة وبطل الالهة الحديثة، حيث تصل الاسطورة هنا الى مكان حرج هو ان "تيامت" زوج ابسو، عزمت على الانتقام من الالهة الحديثة لمقتل زوجها واخذت تعد العدة لذلك فخلقت انواعا كثيرة مخيفة من العفاريت والشياطين والافاعي وسلحتها باسلحة فتاكة واقرت عليها احد الالهة العتيقة " كنكو " وجعلته زوجها وزودته بالسحر واودعت عنده الواح القدر وهيأت جمعها للبدء بحرب الالهة . وفي هذا الموضع يكتشف آيا للمرة الثانية الخطر المحدق بالالهة الحديثة . فخاف وذهب الى جده " انشار " واخبره بما اعتزمت عليه " تيامت " من افناء الالهة . فلما سمع الاله الشيخ بذلك ثار ثائره وضرب فخذه وعض شفتيه وامر "ايا " ان يذهب لقتال تيامت ولكنه جبن لانه خاف من جموعها وكذلك انهزم الاله " انو " منها . واذا استطاع الالهة في الازمة السابقة ان يحلّوا المشكلة بصورة فردية بقيام اله واحد بالامر فانه في هذه الحالة اقتضى الامر ان يعملوا متحدين جميعا . فاجتمعوا في مجلس الشورى المقدس (ندوة الاقدار) وحاولوا ارسال جملة الهة للصلح مع تيامت ولكن جهودهم ذهبت سدى . وفي ندوة الاقدار مرة اخرى اجتمع الالهة في وليمة اكلوا فيها وشربوا وغنوا وزال خوفهم وقرروا انتخاب بطل من بينهم ليتولى عنهم النزال . فانتخبوا الاله مردوخ ، وجعلوه ملكا عليهم . فجلس هذا وسط الالهة حيث اجمعوا على جعل كلمته لا ترد وامره لا يبدل وفوضوه السلطة المطلقة على جميع الكون وزودوه بالاسرار

---

١. في الاصل انليل .

الالهية الكامنة في اسمائهم والخاصة بهم ولكي يمتحنوا قدرته وسلطته الجديدتين وضعوا رداء في وسطهم وقالوا لمردوخ قل كلمة فسيختفي الرداء ،وبكلمة اخرى سيعود الرداء . ففعل واذا بالرداء يتلاشى ، وبكلمة اخرى عاد الرداء . فلما رأى الالهة فعل " كلمته " فرحوا وسجدوا له قائلين ، " حقا ان مردوخ ملك ! " فزودوه بالصولجان والتاج واعطوه سلاحا لا نظير له في حربه مع تيامت،وصنع هو قوسا وسهما عجيبين وصنع ايضا شبكة وامر الرياح الاربعة ان تسكن في مواضعها وركب عربته المرعبة المخيفة تجرها مخلوقات مدمرة . ولما تقابل الاله مع تيامت بدأت هذه تتلو سحرها ، ولكن لم تؤثر في مردوخ ، وبعد تبادل كلمات السباب نشر الاله شبكته واصطادها فيها ، واطلق الرياح الشريرة فدخلت في جوفها فانتفخ بطنها فبقره وذبحها ، وحاولت جموعها ان تهرب ولكن مردوخ لم يدع احداً يفلت من يده فجمعهم في شبكته ومعهم قائدهم " كنكو " فاخذ منه الواح القدر وختمها بختمه واحتفظ بها في صدره ثم رجع الى تيامت وهشم رأسها وقطع مجارى الدم في جسمها فتصاعد منه الدم مع الرياح ، ولما رآه الالهة سروا وهتفوا ممجدين اسم مردوخ . ثم قسم جسمها قسمين جعل من نصفه الاعلى سماء ومن نصفه الاسفل ارضا . وعين في السماء مناطقها وبروجها ومواضع الالهة وبروج الكواكب واوقات الاوقات والفصول :

" وداس الاله على رجلي تيامت
" وبعصاه القاصمة هشم رأسها
" وقطع عروق دمها
" وامر الريح الشمالية لكي تحملها الى الامكنة القصية
" ولما رأى اباؤه ذلك ابتهجوا وتهللوا
" وارسلوا بتحياتهم اليه

" وارتاح الاله . ونظر الى جثتها الهامدة

" ليرى كيف يفصل جسمها الهائل

" فيخلق منه اشياء عجيبة

" شطرها الى قسمين كانها صدفتا محار

" ووضع نصفا منها في موضع وكوّن السماء

" وخط حدودها ،وعين حراسها

" وامرهم ان لايدعوا ماءها يفلت

" وعبر السماء وفحص مناطقها . "[1]

ثم رأى مردوخ من بعد ذلك ان يخلق مخلوقا هو الانسان ليعبد الالهة . فاشار عليه آيا قائلا : ليضحّ احد الالهة لكي يخلق البشر . لتجتمع الالهة كلها وليقدم الاله المذنب . وبعد ان جمع مردوخ الالهة سألهم :من حث تيامت على الثورة ؟ ليضحّ الاله الذى سبب ذلك فاجابته الالهة ان " كنكو " كان السبب ، فقيدته الالهة بالاصفاد ، وقدمته الى الاله "ايا " فاهدر دمه وخلق الانسان من دمه ليعبدهم :

" ولما سمع مردوخ كلمات الالهة

" حثه لبه لكي يخلق اشياء عجيبة

" ففتح فاه وقال لايا

" مفصحا عن الخطة التي دبرها في لبه :

" " دما اخلق وعظما ابرى

" " واصنع (لولو) ،ويدعى بشرا

" " اجل لاخلق لولو : الانسان

" " ولافرض عليه عبادة الالهة حتى يستريحوا "

---

١. مجلة سومر ، الجزء الاول (١٩٤٩) ،ترجمة طه باقر وبشير فرنسيس.

" فجمع مردوخ الالهة العظام

" وفتح فاه ووجه الى الالهة كلمته

" حقا لقد صارحناكم من قبل بالحقيقة

" والان ينبغي لكم ان تقولوا الحق وتقسموا باسمي

" من ذا الذى خلق النزاع

" وحرض تيامت على الثورة ، وهيأها للحرب ؟

" فاجابه الايكيكي (هم الهة السماء) الالهة العظام

" يا ملك الهة السماء والارض

" يا مشير الالهة ويا سيدهم :

" انه كنكو الذى خلق النزاع

" وحرض تيامت على الثورة ، وهيأها للحرب .

" فكبلوه واودعوه السجن امام آيا

" وعاقبوه بقطع عروق دمه

" ومن دمه خلقوا البشر

" وفرض (ايا) عليهم عبادة الالهة

" وصفح عن الالهة الاخرى . "[1]

وبعد ان اكمل خلق الانسان اسس الالهة " ايساكلا " معبد الاله " مردوخ " في بابل واجتمعوا فيه بعد تمامه في حفل مقدس ورتلوا بمجد مردوخ ومنحوه اهم القابهم واسمائهم المقدسة ، فصار يجمع في شخصه اكثر صفاتهم . وتنتهي الملحمة

---

١. مجلة سومر ، الجزء الاول ، (كانون الثاني ١٩٤٩) ، المجلد الخامس طه باقر ، وبشير فرنسيس .

في الرقيم السابع الذى خصص ليكون ترتيلا وصلاة لمردوخ .[1]

في هذه القصيدة نوعان من الخلق - الخلق بالولادة : من ابسو المياه العذبة ، وتيامت المياة المالحة ، ومن لقائهما تولد لخمو ولخامو . ولا بد من الاشارة هنا الى تأثير طبيعة بلاد ما بين النهرين في تكوين هذه الصورة في اذهان السومريين . اذ انه عندما كانت مياه دجلة والفرات تصب في الخليج الفارسي وتلتقي المياه الحلوة بمياه البحر المالحة ، وعندما كان الرافدان يجرفان الطمي الذى يتجمع عند مدخل الخليج

---

١ . تلخيص القصة من طه باقر . " مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة" ص. ٤٥٤ - ٤٥٧ .

لم يبت بتاريخ وضع هذه الملحمة نهائيا . يقول سبايزر (E.A. Spenser) في (Pritchard: Ancient Near Eastern Texts) انه من المرجح ان تاريخ كتابتها لا يعود الى قبل الالف الاول ق.م . غير ان مضمون القصيدة يدل على احتمال عودتها قبل هذا التاريخ اى الى العهد البابلي القديم في الجزء الاول من الالف الثاني قبل المسيح غير ان الكسندر هيدل (Heidel) في كتابه (The Babylonian Genesis) يقول انه بالامكان تحديد كتابتها في حوالي القرن الخامس عشر ق.م . ولكنه يرجح عند تحليل محتوى القصيدة انه من الممكن عودتها الى ما قبل هذا التاريخ ، ولكن ليس بشكلها الحاضر . ويقول انه بالرغم من انها اسطورة بابلية سامية غير انها تعتمد على الاعتقاد السومرى بالكون . وان الاله الرئيسي في الاصل كان لها سومريا (Enlil) ولكنه تغير واصبح مردوخ وان ليس الالهة فقط ما عدا تيامت ، لها اسماء سومرية ، ولكن بعض الالهة انفسهم مثل ابسو ، وانوا وانليل هم الهة سومرية . وثم ان الرياح التي يطلقها مردوخ لها اسماء سومرية . وحتى الانسان نفسه يدعى باسم سومرى (Lullu) . وبالاضافة الى هذا فان فصل الكون الى سماء وارض هي عملية كان يرجعها السومريون الى الههم انليل . ومن الواضح ان الساميين في بابل هم وريثو الحضارة السومرية ولهذا اخذوا عنهم اراءهم وديانتهم ومعتقداتهم . غير انه لا يمكن بالتحديد معرفة مقدار نصيب السومريين من هذه الاسطورة . وعلى اية حال فقد اعتمدنا رأى هايدل بهذا المجال ، واعتبرنا هذه القصيدة تعتمد على المعتقدات والفكر السومرى وتدخل في تراثهم الفكرى .

ويعلو حتى يصبح ارضا يابسة ،والضباب يتجمع فوق الخليج وكانه يحتضن عمليـــة خلق حقيقية ، كان الانسان يفتح عينيه متسائلا عن كيفية خلق الارض والسماء ،فرسخت هذه العملية في ذهنه واقتبسها في تفسيره لعملية الخلق . (انظر الخارطة ص. xiv)

والنوع الثاني من الخلق يظهر بعمل مردوخ عندما يقتطع جسم تيامت الى قسمين ويجعل النصف الاعلى منه السماء والنصف الاسفل الارض ، كما يظهر بعمل ايا او انكـي الذى يهدر دم كنكو ،ويخلق الانسان من دمه ليعبده . كل ما يفعله مردوخ وايا هنا هو ان يضعا المخطط ويتفوها بالكلمة ويتلفظـا " بالاسم " . كذلك تم خلق الانسان في قصيدة " جلغامش ،انكيدو ،والعالم السفلى " —

" وبعد ان لفظ اسم الانسان "

ان الكلمة التي تخرج من فم الالهة هنا هي قوة الخلق . فاذا كان الملك البشرى يستطيع ان يحصل على اى شيء اذا ما اصدر امرا — بكلمات فمه — فلا شك ان الالهة الـتي بيدها زمام الكون تستطيع ان تفعل اكثر بقوة الكلمة .[1]

ان قصيدة "اينوما ايليش " تجد جذورها في مقاطع غير تامة من قصص سومرية

---

١. Kramer, From the Tablets of Sumer, p. 74.

تظهر اهمية الاسم في الديانات اليهودية والمسيحية والمحمدية فاليهود يدعون الله "بالاسم "(Ha-Shem) والمسيحيـــون يقولون " باسم الاب والابن والروح القدس " ، والمحمديون يقولـون " بسم الله الرحمن الرحيم " كل هذا يدل على مقدار اهميـة الاسم وعلى علاقته الجوهرية بحقيقة الشيء ، كما يدل على ان الاسم اسبق من الوجود . لقد آمن السومريون انهم بمعرفتهم لاسم الشيء يعرفون طبيعته ، كما اعتقد بثيـا غوروس من بعدهم ان طبيعـة الشيء يمكن فهمها من خلال ارقامها .

متعددة عن الخلق . اهم هذه المقاطع ما يتعلق منها بخلق الانسان : يخاطب احد الالهة نينهرساج بقوله :

" انت الام - الرحم ،

" انت خالقة البشر ،

" اخلقي الانسان لكي يحمل النير ،

" لكي يحمل النير (...)

" نينتو [1] فتحت فاها

" وقالت للالهة العظام :

" وحدى يستحيل على ان اعمل شيئا ،

" بمساعدته [2] سيوجد الانسان ؛

" هو الذى سيخاف (الالهة) ،

" طين (...) ."

" انكي فتح فاه

" وقال للالهة العظام :

" في شهر التبديل (؟) والمساعدة ،

" في شهر تطهير الارض ومقاضاة راعيها ،

" ليذبحوا لها ،،

" ولندع الالهة ...

" بلحمه ودمه

" لتجبل نينهرساج الطين .

---

١. اسم اخر لنينهرساج

٢. الارجح ان المقصود هنا هو انكي

" الله والانسان

" .... متحدين (؟) في الطين . "[١]

وفي قصيدة سومرية اخرى تتعلق بالطوفان يخاطب احد الالهة المجمع المقدس والمرجح انه آنو اوانليل - قائلا انه سينقذ البشرية من الخراب كيما :

" يضعوا لبنات مساكننا في اماكن نظيفة . "[٢]

اى ان الانسان سيبني مدنا ومساجد للالهة :

" عندما خلق آنو وانليل ، وانكي ، ونينهرساج

" (الشعب) ذوى الرؤوس السود ،

" فاضت الارض بالخضار

" وحيوانات السهل ذوات الاربع ارجل

" ظهرت بوشاقة "[٣]

ان الغاية من خلق الانسان في "اينوما ايليش" كما في المقاطع من القصائد التي سبقت "اينيوما ايليش" هي غاية واحدة - خدمة الالهة وعبادتها وتأمين الراحة لها .

بالمقابل للولادة او الخلق ، كان الموت ، رفيق الخلق الدائم . والموت هو

---

١. Heidel, Alexander, The Babylonian Genesis, (Chicago: University of Chicago press, 1951), 2nd. ed., p. 67.

٢. Ibid., p. 72.

٣. Kramer, The Deluge, A.N.E.T., Pritchard (ed.) p. 43.

اللغز الابدى الذى اثار قلق الانسان في ما بين النهرين ، واثار معه سلسلة من التساؤلات عن معنى الحياة والموت والخلود ، وهو اللغز الذى لا زال يثير قلق الانسان المعاصر . لقد عبر الشاعر السومرى عن مهابة الموت تعبيرا مؤثرا في وصفه لموت البطل جلقامش :

" الذى (قهر) الشر (يضطجع ، ولا ينهض) ،
" الذى (اقام العدالة في البلاد ، يضطجع ولا ينهض) ،
" القوىّ العضلات ، يضطجع ، (ولا ينهض) ،
" الحكيم السمات ، يضطجع ، (ولا ينهض) ،
" الذى يصعد الجبل [١] يضطجع ولا ينهض ،
" على فراش المصير يضطجع ولا ينهض . " [٢]

ان جلقامش وهو البطل الذى ثلثاه اله وثلثه انسان ، القوى العادل الحكيم ، لم يقدر ان يفلت من براثن الموت . فلم حتم على الانسان الموت ؟ واية قوة تشده اليه ؟ الجواب يأتي على لسان الشاعر في القصيدة ذاتها . ان الموت هو نصيب الانسان ، اذ ان هذه هي ارادة الالهة :

" انليل ، الجبل العظيم ، اب الالهة ـ
" جعل من نصيبك الملكية ، يا جلقامش ،
" واما الحياة الخالدة ، فانه لم يضحك اياها . " [٣]

---

١. الجبل وفراش المصير يعنيان الموت.

٢. Kramer, S.N., The Death of Gilgamesh, A.N.E.T., Pritchard (ed.), p. 51.

٣. Ibid., p. 50.

عندما تحقق جلغامش انه ككل المخلوقات الحية سيموت ، ان عاجلا ام آجـــلا فكر ما الذى يمكنه ان يصنعه والموت ينتظـره ؟ فقرر ان يواجه الموت بشجاعة وان يخلد اسمه في اماكن مقدسة :-

" السيد ، نحو بلاد الاحيـاء وجه مسيره ،
" السيد ، جلغامش ، نحو بلاد الاحياء وجه مسيره ،
" يقول لخادمه انكيدو :
" يا انكيـــدو ...
" سادخل البلاد ، وسارفع اسمي ،
" في الامكنة التي رفعت اليها الاسماء ،
" سأرفع اسمي "[1]

ويشير عليه انكيدو بان يستشير اوتو (Uttu) ، الشمس . فيستجيب جلغامش للنصيحة ويقدم الضحايا لاوتو ويطلب منه مساندته في رحلته الى بلاد الاحياء ، ويخاطبـــه قائلا :

" يا اوتو ، سأقول لك شيئا ، اعطني سمعك ،
" في مدينتي يموت الانسان ، صدره ضيق ،
" الانسان يهلك ، قلبه مثقل بالهموم .
" عندما نظرت من فوق الحائط ،
" رأيت الجثث ... تطفو على النهر ، وفكرت بمصيري ،
" افلن يكون مصيري هكذا ؟ ... حقا سيكون هذا .
" الانسان الاطول ، لا يقدر ان يرتفع الى السماء ،

---

١. Kramer, Gilgamesh & the Land of the Living, A.N.E.T., Pritchard (ed.) p. 48.

" الانسان الارحب ، لا يقدر ان يغطي الارض . "[١]

ويقرر اوتوان يساعد جلقامش بان يمنع الشياطين من اعتراض طريقه في رحلته الى ارض الاحياء . فيجمع جلقامش خمسين رجلا من الاوروكيين ليرافقوه في رحلته . وبعد ان يقطع الجبال السبع ينصحه انكيدو بالرجوع ، لان حارس الغابة هو هواوا ، الوحش الهائل . ولكن جلقامش لم يهتم بالانذار ويدعو صديقه الى نزع الخوف من قلبه ومتابعة المسير . وعند لقاء هواوا يتمكن جلقامش من الانتصار عليه . ولعل في صراع جلقامش مع هواوا وانتصاره عليه ، وهواوا يمثل الشر ، رمزا الى تخليد "اسم " جلقامـــــش ، " في الامكنة التي وضعت فيها الاسماء " .

ان التعبير عن قلق الانسان من الموت وتغتيسه عن الخلود ، وتعليله للموت يظهر بصورة اوضح في ملحمة " جلقامش " الشهيرة . ونستغني عن مراجعة هذه الملحمة هنا ، خاصة وانها بشكلها الاخير تعود الى زمن متأخر عن العهد السومري - الاكادي . وتكفي الاشارة الى ان جلقامش ، حين يكون ذاهبا مع رفيقه انكيدو لملاقاة خمبابا وحش غابة الارز ، يخاطب صديقه مشجعا :

" من يا صديقي اقوى من (الموت) ؟
" الالهة فقط (تحيا) الى الابد تحت الشمس .
" واما البشر ، فان ايامهم معدودة ،
" كل ما ينالونه ليس الا قبض الريح ! "[٢]

" وبعد ما ينتصران على خمبابا ويعودان الى المدينة ، يموت صديقه انكيدو ، فيندبه قائلا :

---

١. Ibid., p. 48.

٢. Speiser, E.A. The Epic of Gilgamesh, A.N.E.T., Pritchard (ed.), p. 79.

" عندما اموت ،افلن اكون مثل انكيدو ؟ "[١]

وبذلك يكون جلقامش يندب ،لا صديقه انكيدو وحسب ،وانما البشرية جمعاء. وبعد هنا يصمم جلقامش على ان يجد سر الخلود ، ويضرب في الارض ويقطع بلدانا كثيرة وجبالا وبحورا مخيفة ساعيا وراء اوتنابشتم (Utu-Napishtem)نوح البابليين ، الشخص الوحيد الذى قدر ان ينجو من الطوفان . وفي مسيره التعب يأتيه صوت سيدورى (Sidurî) غانية الحانه قائلا :

" جلقامش ،اين تضرب في الارض ؟

" الحياة التي تسعى وراءها لن تجدها .

" عندما خلق الالهة البشر ،

" جعلوا الموت نصيبه ،

" اما الحياة ، فقد احتفظوا بها لانفسهم . "[٢]

لقد حل سكان ما بين النهرين مشكلة الموت. اذن بان اقتنعوا ، او هم حاولوا ان يقتنعوا ،ان لا نصيب لهم بالخلود ،وانهم فانون مهما تكن الحال .

اما ما هو الموت بحد ذاته ، فقد عبر عنه الشاعر السومرى بقصيدة تدعى "نزول انيناننا الى العالم السفلي " على لسان حارس ابواب العالم السفلي حين يسألها من هي التي تطلب الدخول الى ملكة العالم السفلي فتجيبه :

— " انا انيناننا من المكان الذى تطلع الشمس "

— " اذا كنت انت انيناننا من المكان الذى تطلع الشمس ، لماذا تأتين اذا

---

١. Ibid., p. 88.

٢. Ibid., p. 90.

الى الارض التي لا عودة منها ؟

في الطريق التي لا يرجع السائر عليها ، كيف قادك قلبك ؟ "[١]

فالموت ، اذن ، هو سفر الى ارض لا عودة منها . انه نهاية كل شيء . بخلاف اعتقاد المصريين بان الموت هو مجرد انتقال من مرحلة وقتية الى مرحلة دائمة . كما انهم لم ينفوا عودة الروح الى الجسم . ولهذا برعوا في فن التحنيط وبناء المدافن الضخمة ، كالاهرام ، تخليدا لذكرى شخص فرد ، هو الفرعون ، في حين ان السومريين قصروا اهتمامهم على بناء الهياكل كامكنة يشترك مجموعة من الاحياء في تمجيد الالهة فيها . لقد ركز السومريون اهتمامهم على امور هذا العالم وقضاياه ، اكثر من تركيزهم على امور العالم الاخر . ولهذا يقول احد المؤرخين "ان نظرتهم الى الحياة تنسجم مع نظرة الانسان الحديث اكثر من انسجام النظرة المصرية القديمة ."[٢]

---

١. Kramer, Inanna's Descent to the Nether World, A.N.E.T., Pritchard (ed.), p. 54.

٢. Easton, Op.cit., p. 76.

فلسفة المعرفة والمنطق (الابستملوجيا)

عند السومريين والاكاديين

كانت امور الكون والطبيعة وما يزخران به من عجائب وما يمثلان من سلطة قاهرة في تقرير مصير الانسان امورا استحوذت على معظم اهتمام سكان ما بين النهرين وشغلت القسم الاكبر من انهماكهم الفكرى ، حتى انه لم يخطر لهم ببال ، او هم لم يجدوا الاطمئنان النفسي الكافي ، لينصرفوا الى سبر اغوار النفس الانسانية ويحللوا عناصرها ويبحثوا في مصدر المعرفة او طبيعتها او دور العقل في السعي وراء المعرفة . فالانسان السومرى ، وانسان ما بين النهرين بشكل عام ، كان مشدود العينين الى الاعلى - الى المصدر الذى تستمد منه الطبيعة قواها والذى يهيمن على شؤون حياته . وحين التفت الى نفسه ليرى موقفه من هذا المصدر العالي ، السماء ، (آن) ، آمن انه انما "خلق لخدمة الالهة ولتسهيل اعمالها " . ورأى في كل ما حوله ، الحي منها وغير الحي ، قوى مثله لها ارادة وشخصية ، وان دوره بينها هو دور المساهم معها في تسيير الكون وفق الارادة العليا المتمثلة بالسماء .

يصبح من الطبيعي ، والحالة هذه ان يسعى الانسان لمعرفة ارادة باقي القوى في الكون ، خاصة منها القوى الالهية ، كي تأتي اعماله منسجمة مع هذه الارادة . فمصدر المعرفة اذا هو الالهة التي تعبر عن ارادتها بمظاهر مختلفة كفيضان النهر او جفافه ، او خسوف القمر او الشمس او هبوب عاصفة رملية عاتية ، او نشوب حرب او تدمير مدينة او غيرها . فدور الانسان هنا ان يعرف ارادة الالهة لكي يقوم بالعمل المناسب فيفيض النهر عند حاجة الحقول للمياه ، وتهدأ العاصفة

ويظهر القمر ، ويسير الكون بانتظام يضمن سلامة الانسان .

ولكن كيف يعرف الانسان ارادة الالهة ؟ ما هي وسيلته الى ذلك ؟

الفئة من الناس التي كانت مؤهلة لمعرفة ارادة الالهة في زمن السومريين كانت الكهنة . والكهنة باعتبارهم هم العارفون لارادة الالهة كانوا هم انفسهم الحكام . وفي الازمان الاخيرة وجدت فئة خاصة من الكهنة تدعى " العرافة " مهمتها ان تعرف ارادة الالهة وتنقلها للناس . وكانت الظواهر التي يستنتج منها العرافون تفاسيرهم كثيرة يصعب حصرها ولكن بالامكان تقسيمها الى قسمين : القسم الاول هو الظواهر التي تحدث ولا شأن للانسان بحدوثها ، كحركات الاجرام السماوية ، والعواصف والخسوف والكسوف والروئى والاحلام واتجاه طيران الطيور واتجاه الدجاج وهو يأكل الخ . والقسم الثاني هو الذى يتعمد العرافون حدوثه بانفسهم ، مثل فحص كبد الحيوان المضحى ، وخلط الماء بالزيت مما يصح تسميته بالعرافة المقصودة [1] .

فيما يتعلق بالظواهر التي تحدث ولا شأن للانسان بحدوثها عمد العرافون الى تفسير معناها ومعرفة ما ترمي اليه بواسطة التنجيم (Astrology) . فالتنجيم وهو غير الفلك ، كان يهدف الى الكشف عن المستقبل واستخلاص الاخبار من الغيب . وكان المنجم يحاول ان يقرأ في السماء ما سوف يحدث على الارض . فالاله سن مثلا ، اى القمر ، لم يكن يظهر دائما في اول الشهر وكان احيانا يختفي في اليوم السابع والعشرين واحيانا يظهر تاجه في اقصى لمعانه في الرابع عشر او الخامس عشر من الشهر . فكان ميعاد ظهوره مبعثا لتفسيرات مختلفة خاصة فيما يتعلق بشؤون الدولة .

---

١ . باقر طه ، نفس المصدر السابق ، ص٢٦٨

وكان الامر كذلك بالنسبة لظواهر الاله شمش اى الشمس، وباقي الاجرام السماوية وللزوابع والامطار والبروق والرعود التي هي ظواهر للاله (انليل) سيد العاصفة. والى هذه الظواهر كانت تنسب الاحداث السعيدة او السيئة التي تحل بالبلاد كالحملات الحربية والغزوات ومرض الامير او موته والقحط والفيضان وسواها.[١]

وقد تطيروا كثيرا من خسوف القمر وكسوف الشمس اذ كانوا يعزون مثل هذه الامور الى فعل العفاريت والشياطين وحربها مع الالهة. كما كانوا يتطيرون كثيرا اذا ظهر القمر والشمس معا في اليوم الثاني عشر فيكون ذلك انذرا بفناء السكان وكثرة السرقات.[٢]

لقد كان لاهتمام السومريين بمراقبة الاجرام السماوية فضل كبير في ازدهار علم الفلك خاصة في العهد البابلي. ويقول ارنست كاسيرى في التنجيم انه رغم كونه طريقة خاطئة في التفكير الرمزى او التمثيلي، فاليه يرجع الفضل في شق الطريق لاول مرة امام نوع جديد وصحيح من الرمز او التمثيل، هو التمثيل في العلم الحديث".[٣]

والاحلام هي مصدر اخر للعرافة غير المقصودة. فالالهة ترغب احيانا ان تتصل بالاتقياء من الناس وتخبرهم بعض الحوادث المغيبة. ويكون الاخبار اما صراحة او رمزا فيحتاج الرائي في الحالة الثانية الى مفسر للحلم. وقد اختصت طبقة من الكهنة بتفسير الاحلام وهي طبقة "الشائلو".[٤]

---

١. ديلابورت، بلاد ما بين النهرين، ترجمة محرم كمال وعبد المنعم ابو بكر. مصر، الجماميز، مكتبة الاداب. من سلسلة ... اكتاب.

٢. باقر، طه، نفس المصدر السابق، ص ٢٧١.

٣. Cassirer, Ernest, An Essay on Man (New Haven: Yale University Press, 1944), p. 48.

٤. باقر، طه، نفس المصدر السابق، ص ٢٧٢.

اهم ما وصلنا من الاحلام هو حلم "جوديا" كاهن مدينة "لجش" . فعندما حان اوان فيضان نهر دجلة ولم يفض ويغمر الحقول كعادته احس جوديا بان هناك خللا ما في بعض الامور. وان الهة النهر نينهرساج ،غير راضية عليه. فما كان منه الا ان قصد الى الهيكل حيث قدم الضحايا وصلى ، ونام ليلته هناك على امل ان تظهر له الالهة في الحلم وتنبئه برغبتها . وفي منامه ظهر له رجل هائل على رأسه تاج الهي وله جناحان كطائر كبير وجسد يرتفع فوق امواج صاخبة . والى يمين هذا الرجل ويساره كانت تربض اسود . فتكلم الرجل وامر جوديا بان يبني له بيتا :

" في الحلم ، الرجل الاول - كان عظيما كالسماء ،
" كان عظيما كالارض .
" رأسه وتاجه ،كانا رأس اله وتاج اله
" جناحاه ،كانا جناحا طائر مقدس
" اقسام جسده السفلى (؟) كانت موجا زاخرا .
" الاسود كانت تربض عن يمينه وشماله .
" امرني ان ابني بيته .
" لم اعرف ماذا يقصد بالتمام ." [1]

وظهر نور نهار ، وبعده ظهرت امرأة تبدأ في تهديم مخطط لبناء . وكانت تحمل في يدها قلما من ذهب ، ولوحة من الطين عليها مجموعة من النجوم الثابتة ، فانكبت على هذه النجوم تتفحصها . بعد هذا جاء محارب يحمل لوحة من اللازورد خطط عليها مخطط لبيت . ورأى جوديا امامه طينا مجبولا وسلة ورجالا على شاكلة

---

1. Frankfort, Kingship & The Gods, p. 256.

الطيور يصبون المياه على الطين باستمرار وحمارا الى يمين الاله يضرب الارض بحافريه.[١]

مع ان جوديا عرف مغزى الحلم بشكل عام الا انه رغب في معرفة التفاصيل. ولهذا قرر استشارة الالهة نانشي(Nanshe) ، فذهب اليها وهي في مكان بعيد ، وكان يقدم الضحايا ويصلي في طريقه . وعندما بلغ مرماه اخبرته نانشي (ولكن لا نعرف كيف) ان الرجل ذا التاج والجناحان هو نينهرساج يامر جوديا بان يعيد بناء معبده (انيننو) وان طلوع النهار هو اله جوديا الخاص الذى سيعمل بارشاده فيجلب مواد البناء من الاماكن البعيدة . واما الالهة التي كانت تتفحص النجوم ، فانها كانت تقرر تحت اى نجم ، اى في اى زمن يجب ان يبنى الهيكل . واما المخطط الذى كان يرسمه الاله فهو مخطط الهيكل ، والسلة والطين هما لبناء الهيكل ، والرجال الطيور الذين يعملون بجد يرمزون الى ان جوديا لن يستقر له بال حتى يتم بناء الهيكل ، والحمار الذى يضرب الارض بحافريه هو جوديا نفسه يستعجل وقت البدء.[٢] فيرجع الى نينهرساج ، حيث تخاطبه بقولها :

" ايها الراعي الامين جوديا ،
عندما تبدأ بناء معبدى المقدس في انيننو ،
سادعو الرياح الرطبة في السماء .
واهطل عليك الخير من عل ،
وستفتح البلاد ذراعيها بالغنى في عهدك .
الغنى سيرافق وضع الاساس لبناء معبدى.

---

١. Frankfort, Kingship and the Gods, p. 256.

٢. Jacobsen, et. la., op.cit., p. 205.

كل الحقول ستمتلئ لك بالخير ،
والقنوات والمجارى ستمتلئ بالمياه .
والزيت سيتدفق بكثرة في سومر في عهدك .
واحمال كثيرة من الصوف ستوفر في عهدك . "[1]

ويطيع جوديا الحلم ، ويبدأ في بناء المعبد . ان حلم جوديا هو مثل على احلام كثيرة كان الحكام والكهنة يسترشدون بها لمعرفة ارادة الالهة .

اما العرافة المقصودة فاهم انواعها طريقة فحص الكبد (Hepatoscopy) . اذ ان السومريين وسكان ما بين النهرين عامة كانوا يرون علاقة بين الاله الذى يقرب اليه الحيوان المضحى والحيوان نفسه . اذ عندما يضحى الحيوان ويقدم الى الاله فانه يصبح جزءا من اجسام الناس الذين يأكلونه . ولهذا فمن الممكن للبشر ان يتطلعوا الى روح الاله ومعرفة ارادته من درس روح الذبيحة . والمكان المفضل لوجود روح الذبيحة هو الكبد باعتباره مستودع الدم في الجسم ، والدم هو عنصر الحياة في الانسان . وعلى هذا يصبح بالامكان معرفة ارادة الالهة من فحص كبد الحيوان المقرب وفهم ما تظهر فيه من علامات تعبر عن مشيئة الاله كالفقاقيع والخطوط والتشقق ووضع القنوات التي تربط المرة الصفراء . وفي اجزاء الكبد علامات صالحة وغير صالحة ، وقد تربو الاولى عن الثانية فتكون المعتبره واذا تساوتا يعاد الفأل بفحص ثان وثالث.[2]

ومن اصناف العرافة المقصودة طريقة صب الماء في الاناء على الزيت

---

١. Frankfort, Kingship and the Gods, p. 257.

٢. باقر ، طه ، نفس المصدر السابق ، ص. ٢٦٩ .

وهي ما يطلق عليها اسم (Lecanomancy) من (Lecan) ومعناها اناء او طشت و (Mancy) ومعناها عرافة او فأل . وقد شاع استعمال هذه الطريقة في ما بين النهرين بدليل العثور على اوان من الفخار من عصر فجر السلالات يرجح انها كانت تستعمل لهذه الغاية . ووصفت الكتابات المتعلقة بهذه الطريقة ما يشاهد العراف من كيفية اختلاط الزيت بالماء ونشوء حلقات من الزيت واتجاهها وطوافها في الماء .[١]

اذا كانت الالهة هي مصدر المعرفة ومهمة الانسان ان يسعى لمعرفة مرامي الالهة ، بالتنجيم حينا وبالاحلام احيانا اخرى ، او بفحص الكبد وصب الماء على الزيت ، او بغيرها من الوسائل ، فما هي طبيعة المعرفة اذا ، وما هو دور العقل في تتبعها ؟

ان ايمان السومريين بمبدأ الاحيائية (Animism) كمبدأ عمل في الكون ، جعلهم يعتبرون الحقيقة امرا مستقلا عن معرفة الانسان او جهله لها ، وان المعرفة بالتالي ، تخضع لارادات خارجة ومستقلة عن ارادة الانسان ، ولهذا فان المعرفة التي يملكها انسان ما هي شيء وقتي يتبدل ويتغير وفق تبدل ارادة الشيء مصدر المعرفة او تغيره . الانسان اذا لا يقدر ان يثق بمطابقة معرفته للشيء لحقيقته ، اى انه لا يقدر ان يعرف ويثق بمعرفته بمعنى المعرفة الحقيقي . انه يصرخ :

" يا الهي ، ان اثامي كثيرة ، وعظيمة خطاياى
" الثمرة المحرمة التي اكلت منها انني حقا
" لم اكن اعرف
" المكان المحرم الذى وطأته قدماى ، انني حقا لم اكن اعرف .

---

١. باقر ، طه ، نفس المصدر السابق ، ص ٢٧٠ .

" الى متى ايتها الالهة التي اعرفها والتي لا اعرفها

الى متى تشيحين بوجهك عني ؟

" الانسان ابكم ، الانسان لا يعرف شيئا ،

" البشرية كلها ، كل انسان حـي - ما الذى يعرفه ؟

" انه لا يعرف حتى اذا كان يرتكب اثما او يصنع خيرا " .[1]

ان قصة "المعذب الصالح " هي اتم مثال على شك الانسان السومرى بالحقيقة وبمرامي الالهة وبعجزه عن معرفة هذه المرامي . فهو يرفع صوته عاليا :

" الذى يظهر خيرا في عين الانسان ، قد يكـون شرا في عين اله ما .

" الذى يظهر شرا في عين الانسان ، قد يكون خيرا في عين الهه .

" من يقدر ان يفهم حكمة الالهة في كبد السماء ؟

" ان ارادة الالهة عميقة كالمياه ، من يقدر ان يفهمها ؟

" اين تعلم الانسان المحتار خطط الالهة ؟

" ذاك الذى كان حيا بالامس مات اليوم :

" فجأة يـظـهر حزينا ، فجأة يسحق .

" في برهة يغني اغنية مرحة ،

" وفي برهة ينوح ويبكي . "[2]

ان ايوب البابلي، خلف المعذب الصالح ، ايضا يصرخ : من يقدر ان يفهم

---

١. Stephens, J. Ferris, Prayer to Every God, A.N.E.T., Pritchard (ed.) p. 392.

٢. Pleiffer, H. Robert, I will Praise the Lord of Wisdom; A.N.E.T., Pritchard (ed.), p. 434.

خطط الالهة في اعالي السماء ؟ "[١]

ان هذا الصراخ الحار منبعث عن توق حار الى المعرفة . فسكان ما بين النهرين وهم في خضم طبيعة طالما عاجلتهم بالمفاجآت كانوا يسعون سعيا حثيثا وراء معرفة اسرار الكون ، ولكنهم في هذا المسعى ما كانوا ليثقوا ثقة تامة بالنتائج التي يتوصلون اليها ، وانما كانوا يسلمون بصحتها وينسجون حولها النسج الاسطورية الشعرية كيما ترسخ في يقينهم كحقيقة يمكن الركون اليها ولو الى حين . وطبيعي ان الانسان في كل مراحل التاريخ ، كان يحتاج للايمان بحقيقة ما كيما يقدر ان يعمل ، ذلك لان شرط العمل ليكون منظما ومتسقا ان يكون مستندا الى الايمان بحقائق او قيم ما .

واما دور العقل ضمن هذا الاطار ، فكان التأمل والانعكاس على حقائق الكون لسبر اغوارها ، وثم القيام بالاعمال التي تكفل للناس رضى الالهة . ان دور العقل هنا هو تقبل المعرفة كما تظهر له من خلال التأمل والعمل بموجب هذه المعرفة .

على ان العمل بموجب ارادة الالهة كان له نتائج اخرى في تطوير ليس مظاهر الحياة السومرية المادية فحسب وانما الاسس الفكرية كذلك . فاذا كانت الالهة ترغب ان يبني لها الانسان معبدا ، وتمكن الانسان بوسائله المتعددة ان يعرف رغبة الالهة هذه ، فان ذلك يضع على عاتقه عبئا ثقيلا هو معرفة كيفية بناء المعبد . ومن هنا يبدأ مسعاه في سبيل البحث عن افضل الطرائق لبناء المعبد . ومن خلال هذا المسعى تتكشف له وسائل مختلفة للوصول الى المعرفة يختار افضلها لبناء المعبد .

---

١. Hooke, S.H., Babylonian & Assyrian Religion, (London: Hutchinson's University Library, Hutchinson House, 1953), p. 101, V. I.

بهذه الطريقة تكثر لديه البينات العلمية (Scientific Data) وبذلك تتطور نظرته الى الحقيقة ومعرفته لها . يمكن تلخيص تاريخ التطور البشرى بمجمله بهذه الحركة المتصاعدة من التفاعل بين الفكر والعمل واغناء الواحدة منهما للاخرى . فالكتابة مثلا، وهي وليدة رغبة الانسان في ما بين النهرين في ان يضبط موارد المعبد وينظم شؤونه، اقتضت نشوء المدارس لتعليم طرائق الكتابة ، وكان نشوء المدارس مبعثا لتفتح الانسان على معارف اخرى وتسهيل وصوله اليها كالمعارف الهندسية والرياضية ، وهكذا تطورت الرغبة في تعليم الكتابة لتصبح رغبة في تعلم اشياء اخرى كفنون البناء والزراعة والحياكة وسواها ، وكان من الطبيعي خلال هذا التطور ان يتخذ العقل له ادوارا لم تكن من اختصاصه قبلا ، اذ اخذ يتحول من كونه اداة تلقي المعرفة عندما تظهر له في الاحلام او الرؤى او سواها ، او من دور التأمل والانعكاس على العالم الخارجي ، الى دور تحليل الظواهر وتخريج النتائج وتكوين الاراء وهو دور فعال (Active) يختلف عن الدور السابق المستكين (Passive).

تمشيا مع هذا التطور الجوهرى اخذت نظرة السومريين الى الحقيقة تقرب اكثر واكثر نحو المبدأ العملي والحسي القائل بان الحقيقة هي ما يقع تحت نطاق الحس ، وما تظهر حقيقته من خلال التجربة الحسية . ذلك لانهم خلال تطور شؤون حياتهم اخذت الاشياء الحسية التي يحتاجون اليها في اعمالهم اليومية ، تبرز لهم كضرورة لحياتهم اكثر من الاشياء الاخرى غير الحسية . وهكذا باختبارهم للاشياء الحسية واستعمالهم اياها وتجربتهم لها ومعرفتهم ما هو مناسب منها لاتمام غرضهم وما هو غير مناسب ، تمكنوا ان يضعوا مقياسا ثابتا وعمليا يميزوا بواسطته بين ما هو حقيقي وما هو غير حقيقي . ان نظرتهم بهذا المجال مطابقة للنظرة الحديثة التي تعرف بالواقعية او الحسية او العملية (Empiricism) .

لهذه الاسباب لم يهتم الكاتب السومرى كثيرا في خصائص الاعداد بحد ذاتها ولا في قياس مساحات الفراغ لمجرد معرفة مساحتها ، ولا في قياس البادية التي لا يمكن زراعتها ، بل اهتم اهتماما بالغا في معرفة مقدار ما يجب ان يختزنه من حبوب من موسم لموسم لزراعة حقول الالهة ، وعدد الاجر الذى يحتاجه لبناء معبد ما ، ومساحة الارض التي يحتاجها هذا المعبد ، وعدد العمال الذين يحتاجهم بناء المعبد في الوقت المحدد . لقد ترك لنا السومريون من عهد جمدت نصر اثارا تدل على اهتمامهم الكبير بهذه الامور العملية ، كاستخراج مساحة المستطيل بضرب طوله بعرضه .[١]

بالرغم من ان مفهوم السومريين لطبيعة الحقيقية ودور العقل في تتبعها وطبيعة المعرفة لم يتعمق ويتشعب بالمقدار الذى تعمق وتشعب به الفكر الحديث ، الا ان ذلك المقدار البسيط من التفكير العملي الواقعي ، على ما يظهر كان يكفيهم لاتمام اعمالهم على الوجه الذى يرغبون ، اى بمعنى اخر ، ان حركة التفاعل بين الفكر والعمل السومريين كانت متوازية ومنسجمة بشكل ضمن للمجتمع السومرى آنذاك التطور التاريخي السليم .

---

١. Childe, What Happened in History, p. 189.

نظرة القيم والاخـــلاق

عنـــد السومريين والاكاديـــن

في اساس نشوء القيم في بلاد ما بين النهرين ، ولعله في العالم اجمـــع ، عنصران اساسيان هما : الدين والمجتمع [1] . الدين يعين القيم ويدعم ترسيخهـــا في النفوس . والمجتمع يضـــع هذه القيم موضع التجربة ، وفي الوقت نفسه يهـــيء لنشوء قيم جديدة . ومن تفاعل هذين القطبين — الدين والمجتمع بنسب مختلفـــة — تنبثق القيم التي يأخذ بها المجتمع وتصبح اساسا لسلوك افراده .

في البدء حين لم يكن الانسان قد توصل الى انتهاج طريقة معينة في التفكير والتأمل بسبب ارتباطه بمتطلبات حياته المادية المباشرة ، لم يكن ليقدر ان يحـــدد مكانه بالنسبة للعالم الخارجي ولغيره من الناس ، ولهذا لم يستطع استنباط ايمـــان ديني منظم يستمد منه قيمه الاخلاقية . فالخير والشر وسواهما من القيم كانت تنحصـــر باطار الحاجات المادية المحدود آنذاك ، ولكنه عندما ابتدأ يتغلب من وطأة هـــذه الحاجات ويجد الوقت الكافي ليفكر ويتأمل في طبيعة الكون ، وطبيعة الانسان وفـــي علاقته مع الناس ، تمكن من ان يستجمع خطوط ايمان ديني معين اصبح هو المنارة التي تنير له السبيل . ويتلخص هذا الايمان بان الكون والناس وجميع المخلوقات الحية وغير

---

١ . في الواقع انه لا يمكن فصل الدين عن المجتمع فصلا تاما ووضعه في طرف والمجتمع في طرف آخر . اذ ان الدين ذاته ، وخاصـــة في الازمان الاولى ، مستمد في معظمه من المجتمع . غير اننا وضعنا هذا التمييز هنا للاهمية الكبرى التي كان الديـــن يحتلها في نفوس سكان ما بين النهرين لدرجة توازي ، ان لـــم تفق ، تأثير بقية العوامل الاخرى المنبثقة من المجتمع .

الحية تخضع لسيطرة قوة معينة هي خالقة كل شيء ، وان مصيره متوقف على هذه الارادة محدد بها . وعندها اصبحت القيم الاجتماعية محددة بهذا الايمان ، واصبح الخير يعني له خدمة الالهة ، القوة التي تسيطر على كل شيء ، والشر يعني مخالفتها . واصبح الانسان السومري ، انطلاقا من هذا الاساس ، اذا ما احس بالم ، او اتلفت مزروعاته او اصابه مكروه ما ، يستنتج ان هذا ليس الا عقابا له من الالهة على مخالفته ارادتها . بهذا المعنى اصبح الانسان السومري يقيّم الاعمال بنتائجها ، فالاعمال التي تؤدي الى العذاب والالم والخسارة ، هي شرور والتي تؤدي الى السلامة والاطمئنان هي خير . والمصائب التي تنزل به يتقبلها على انها عقاب له على اثم ارتكبه دونما سؤال منه عن ما هو هذا الاثم او ان كان يستحق هذا النوع من العقاب او لا يستحق . كان يتقبل العقاب على انه ارادة من الالهة ، والخير على انه كرم منها او منحة . لم يكن للانسان حق بالعدالة يطالب به الالهة . وكل ما كان باستطاعته ان يفعله ، في هذا المجال ، هو ان يتوسط اليها عن طريق الهه الشخصي ، فيقدم له الضحايا ويصلي ويقرع صدره ، ويتضرع اليه على امل ان يستعطف الالهة الكبار ويلفت انظارها اليه .

من هنا ان جوهر علاقة الانسان السومري بالالهة كان الخوف ، الخوف من العقاب الذي قد يتخذ اشكالا مختلفة . والخوف هو الباعث على نشوء الدين كمحاولة تصعيد عن الخوف كانت تتمثل عند السومريين بالتضرع ، والصلاة ، وتقدمة الضحايا ، واقامة النصب ، وبناء المعابد ، وشق الاقنية ومساعدة الفقراء ، وحماية الضعفاء ، وسواها من الاعمال التي تهدف الى الحصول على رضى الآلهة وحمايتها كيما يبقى الكون سائرا بانتظام . ان خوف الانسان من الالهة يظهر في معظم الاناشيد والصلوات السومرية ، ومنها هذه الصلاة الموجهة الى "كل اله" خوفا من ان يغضب المصلي الهها ما ، فيقول :

" الالهة التي اعرفها والتي لا اعرفها تضطهدني ،

" الالهة التي اعرفها والتي لا اعرفها القت الالام علي .

" مع انني اطلب العون دائما ،لا احد يأخذ بيدى ،

" عندما ابكي لا يأتون الى قربي ،

" اصعّد التأوهات ، ولكن لا يسمعني احد ،

" انني مضطرب ،مقهور ،لا اقدر ان ابصر .

" يا الهي ،ايها الرحوم ،ارفع اليك صلاتي ،

" تعطّف علي

" اقبل قدمي الهتي ،ازحف امامك" [١]

كما يظهر في هذه الصلاة الى عشتـــار :

" ايتها المشعة ،عشتار ، يا جامعة القرابين ،

" يا الهة الرجال ،الهة النساء ،يا من لا يعرف مقاصدك احد ،

" حيث تنظرين ،يحيا الميت ،ويشفى المريض .

" لقد تضرعت اليك ، متألما ،موجعا ،وحزينا ،كخادم لك .

" انظري الي يا سيدتي ،تقبلي طواتي .

" انني انوح كالحمامة ليلا ونهارا .

" انـني مقهور ،ولهذا ابكي بالم .

" باوه واواه تتفتت روحي .

---

١. Stephens, J. Ferris, Prayer to Every God, A.N.E.T., Pritchard(ed.), p. 391.

" انا - ما الذى فعلته ، يا الهي وآلهتي ؟ "[١]

بالرغم من هنا الخوف العميق من الالهة ومن القوى الطبيعية التي تعتبر مظاهر لهذه الالهة ، فان حقيقة رئيسية كانت تفوض وجودها في تكوين القيم الاخلاقية للسومريين . هذه الحقيقة هي ان وجود السومريين وتفاعلهم ضمن مجتمع معين له خصائصه وله ميزاته وحاجاته ، اخذ يفرض عليهم قيما معينة كانت المظهر الحركي والسلوكي لخصائص هذا المجتمع . وكما هي الحال بالنسبة لنظرة السومريين الميتافيزيقية التي استمدوها من المجتمع وطبقوها على الكون - اى انطلاقا من المحدد ، المجتمع ، الى المجرد ، الالهة والكون - كذلك اخذ السومريون يعزون القيم التي يستمدونها من المجتمع الى الالهة . وصاروا يعتبرون ان القيم الخيرة ، اى الضرورية لحياة المجتمع البشرى ، يجب ان تكون كذلك ضرورية لحياة مجتمع الكون ، ولهذا يجب ان تكون قيما خيرة بالنسبة للآلهة ايضا . وهكذا يصبح بالامكان تفهم القيم الاجتماعية التي سادت في ما بين النهرين من خلال دراسة القيم التي عزوها الى الالهة ، التي لم تكن تختص ، في الواقع ، باية قيم او ميزات معينة .

من هذه القيم الرئيسية التي تتصف بها الالهة حتى الموكل اليها اعمال العنف ، محبة العدل والاستقامة والخير . فالاله انليل الذى يقرر مصائر البشر ابد الدهر ، هو كما مر قبلا :

"الخير مستقيم ، الشرير ، الظالم ،

"ال ... ، النمام ،

"المتعجرف ، الذى ينقض العهود ،

---

١. Ibid., Hymn to Ishtar, p. 384.

" لا يسامح شرورهم في المدينة

" الشبكة العظيمة ...

" لا يترك الاشرار والخبثاء يتفلتوا منها . "[١]

كما ان الالهة نانشي (Nanshe) ،الهة مدينة لجش ، هي الالهة الشغوق الرحوم ،كما يستدل من رقيم عثر عليه حديثا :

" التي تعرف اليتيم ، التي تعرف الارملة ،

" تعرف ظلم الناس للناس ،نانشي ام اليتيم

" نانشي ،تأخذ بساعد الارملة ،

" التي تطلب(؟) العدالة (؟) للفقراء .

" الملكة تضم اللاجئ الى حضنها ،

" وتجد مأوى للضعيف . "[٢]

زيادة عن هذا فقد اقام السومريون بينهم آلهة خاصة بالعدالة ،ومعاقبة الاشرار ،ومكافأة الابرار ، كالاله اوتو (Uttu) أوشمش (Shamash) ،اى الشمس . وفيما يلي بعض الابيات التي تبين القيم التي يمتاز بها شمش :

" يا منير الظلمات....

" يا قاهر الشر ... في الاعلى والاسفل

" ان اشعتك مومية على العالم كشبكة هائلة ،

---

١. Kramer, From the Tablets of Sumer, p. 87.

٢. Ibid., p. 100.

" ينحني امامك الاشرار والابرار :

" انك تقف بجانب المسافر تساعده على مشقة الطريق ،

" الى مقتحم البحار الذى يهاب المياه تعطي الشجاعة ·

" واسعة هي شبكتك لتقبض على الرجل

" الذى اشتهى زوجة صديقه ···

" في يوم سوء ···

" عندما توجه اليه سهامك ،لا يجديه عون

" وفي يوم محاكمته ابوه لن يقف الى جانبه

" وحتى اخوته ،لن يردوا كلام القاضي ،

" وهرتكب اعمال الدنس تحطم قرنه ·

" والقاضي غير المستقيم ستعمل على سجنه

" والذى يأخذ الرشوة ليزور العدالة ستنزل عليه عقابك·

" والذى لا يقبل الرشوة ولكنه يشفع للضعيف ،

" يفرح شمش ،ويغني حياته ·

" والحاكم القلق الذى يصدر حكما عادلا ،

"يهيئ قصرا ،بيتا لامرأ سيكون بيته ·

"ذاك الذكي يستثمر مالا بفوائد باهظة ـ ما الذى يربحه ؟

" انه سيكذب من اجل الفائدة وبعد ذلك سيفقد ماله ·

" والذى يستثمر ماله بفوائد معتدلة ،مثقال واحد لكل ثلاثة ،

" يفرح شمش ،ويغني حياته ·

" كمياه الينابيع الخالدة التي لا تنضب ستبقى البذور الابدية

" لمن يعمل اعمال الخير ،لمن لا يحتال في الحساب ·

" اولئك الذين يقترفون الاثم - لن تخلد بذورهم ·" [١]

ان المدقق في هذا النشيد لا يصعب عليه تلمح شبه في بعض مقاطعة بالوصايا العشر التي وردت في التوراة · ان هذه القيم المنسوبة الى شمش او اوتو ليست من خصائص شمش ولا اوتو وانما هي قيم اجتماعية صرفة نمت في صدور الناس على ممر الايام كضرورة لتقدم اعمال المجتمع وتيسير اموره · وما ارساؤها على قواعد دينية وربطها بالالهة الا من قبيل التأكيد على اهميتها كيما تصبح بين الناس بمثابة الشريعة المقدسة التي لا يجوز مخالفتها · انها محاولة للتوحيد بين مصدرى القيم الوحيدين - الدين ،او الالهة ،والمجتمع ،بحيث يضفي الدين على هذه القيم واقعيته المستمدة من التجربة ،وتضفي الالهة قداستها على هذه القيم ،فتنزل الخوف بقلوب الناس اذا ما فكروا بتخطيتها ·

وكان للخوف سلطان قوى على نفوس الناس آنذاك · والخوف يستتبع الطاعة ، وقد احتلت الطاعة مركزا اوليا بين القيم السومرية ،اذ بواسطة الطاعة يمكن للسومرى ان يرضى الالهة ويحصل على الارتياح النفسي · غير ان الطاعة ،كانت تتحول على ممر الايام الى طريقة حياة يجد الانسان سعادته بالتزامها ، في الوقت الذى يتحرر

١· Stephens, J. Ferris, Hymn to the Sun God, A.N.E.T., Pritchard(ed.), p. 386.

لقد اهملت ترجمة بعض الابيات في هذا النشيد · ولا يذكر المترجم تاريخ كتابته · الا ان الاله شمش هو اله بابلي ،كما هو معروف مرادف لاوتو السومرى · وليس من المستبعد ان يكون لهذا النشيد جذور سومرية ،بدليل ان اوتو هو اله العدالة عند السومريين ، كما هو شمش عند البابليين · بالاضافة الى ان محرر هذه القصائد قد صنف هذا النشيد بين الاناشيد الاكادية ·

فيه تدريجيا من الخوف ، الباعث الحقيقي للطاعة، لتصبح الطاعة جزءا لا يتجزأ من اخلاقه . ان نظرة السومريين الى كيفية تركيب الكون ومكانة الالهة ، جعلت الطاعة امرا ملازما لمسير الكون والمجتمع بصورة متسقة . ان الطاعة تتمثل في جميع المؤسسات السومرية . انها تتمثل في العائلة . في اطاعة الصغير للكبير :

" ايام لم يكن رجل يهين رجلا اخر ، حين كان الولد يحترم ابناه
" ايام كان الاحترام يسود البلاد ، حين كان الضعفاء يكرمون العظماء ،
" حين كان الاخ الصغير ... يحترم (؟) اخاه الاكبر ،
" حين كان الولد الاكبر يرشد الولد الاصغر ،
" والولد الاصغر يتقيد بارشاداته . "[1]

حينذاك كانت الايام سعيدة . والشاعر بذلك انما يخطط لقيم اجتماعية يتقيد بها افراد المجتمع . انه يدعو الصغير الى التقيد بما جاء في هذا النشيد ، " كما كان سائدا في الايام الخوالي . "

ولكن الطاعة لم تكن لتقتصر على افراد العائلة وعلاقاتهم ببعضهم البعض ، بل كانت تمتد الى مختلف مؤسسات المجتمع التي يرأس كل منها شخص له حق الطاعة المطلقة على من هم ادنى منه . ان فكرة "الرأس" كانت تلازم حياة السومريين واعمالهم ، فهي شرط لنجاح كل عمل ، وغياب الرأس الذى يتّحد فيه ولاء الجميع ، يعني الفوضى ، والفوضى كانت تمثل للسومريين قمة المساوئ التي يمكن ان تحل بمجتمع ما . " ان الجنود بدون رئيس هم كالخراف بدون راع " والفلاحون بدون رئيس هم كالحقل بدون

---

١. Jacobsen, et. la. Op. Cit., p. 217.

حراثة "[1] . كما ان كون الارض والمدينة ملكا للآلهة ، والناس ليسوا الا قيمين على هذه الملكية ، يفترض الطاعة المطلقة من قبل الناس لصاحب الملك الحقيقي .

في الطرف المقابل لايمان السومري الديني ، اى انه انما خلق لخدمة الالهة ، وان المصائب التي تحل به انما هي عقاب له على اثم ارتكبه ، كانت علاقات الناس تتعقد وتتشابك مع بعضها البعض . وامور المجتمع تتشعب ، نتيجة لازدياد السكان في السهل ، وتقدم وسائل الزراعة . فابتدأ تفكير الانسان يتجه اكثر واكثر نحو مصالحه ضمن المجتمع ويتركز على علاقته مع غيره من الناس ، حتى ان شيئا من التساؤل بدأ يتسرب الى نفسه حول ارادة الالهة ومقاصدها ، وابتدأ تسليمه المطلق الى الالهة وتقبله الطوعي لكل ما ينزل به ، ان خيرا فنعمة من الالهة ، او شرا فعقاب منها ، يداخله شيء من الرفض . ذلك لان اى عمل يجرى بين الناس اصبح تأثيره يمتد الى الغير بصورة اقوى من اى يوم مضى . فحيث كان اعتداء رجل قوى مثلا على مزروعات رجل ضعيف يعتبر عقابا من الالهة للضعيف على يد الرجل القوى ، اصبح بعد تشابك مصالح الناس ، يعتبر تعديا من الرجل القوى على الضعيف ، وظلما منه للرجل الاخر .

لقد ابتدأ التجاذب هنا بين الدين والمجتمع كمصدري القيم الوحيدين . ففي حين كان الطرف الديني يدعو الى تقبل تعسف الرجل القوى وتسلطه على مزروعات الرجل الضعيف ، كان الطرف الاجتماعي يتساءل عن وجهة العدالة في هذا الامر . وتدريجيا اخذ يدعو افتصاب القوى لمزروعات الضعيف ليس عقابا على خطيئة اقترفها الضعيف ، بل عمل الافتصاب ذاته هو الخطيئة . اى انه هنا ابتدأ يحدد مقياسا

---

[1] Ibid., p. 217.& 218.

آخر يقيم به الاعمال والافكار . هذا المقياس هو مصلحة المجتمع . الخير ، بموجب هذا المقياس هو ما يؤمن سير اعمال المجتمع باامان واستقرار والشر هو ما يعرقل سير هذه الاعمال .

بهذه الصورة كان وعي الناس يتطور تدريجيا نحو التشريع ، اى الفصل بين ماهو حق وما هو باطل لكل فرد من افراد المجتمع . لقد جاء التشريع كضرورة لا بد منها بعد ان تعقدت امور المجتمع وتشابكت ولم يعد مفر من تنظيم هذه الامور على الوجه الافضل . ويعني نشوء الشرائع تحول رئيسي في ميزان القيم ، من تسليم لارادة الالهة وارتكاز عليها الى ارتكاز اكثر على مصلحة المجتمع . وقد امن السومريون التوازن في هذا التحول الهام ، الذى حدث بصورة تدريجية ، بان اعتبروا هذه القوانين ذاتها استجابة لارادة الالهة . اذ ان تأثير الذين في كل مظاهر الحياة السومرية وكل مراحل الحضارة السومرية حتى ابان تعقد امور المجتمع وتشابك مصالح الناس ، لا يمكن اغفاله . ولكن الجديد في الامر هو ان تأثير المجتمع قد ابتدأ يفعل في توجيه القيم بصورة مباشرة اكثر من قبل. وهذا التأثير يبرز جليا من تحول فكرة العدالة كمنحة من الالهة الى حق للناس . وفي هذا التحول من نظرية المنحة الى نظرية الحق تكمن ثورة اخلاقية كبرى اثارت في نفوس السومريين تيارات فكرية هامة ، جاء اعمقها بشكل تساؤلات عن ماهية الخير والشر ، وما هي ارادة الالهة ، وما هو الموت والحياة الاخرى .

بالرغم من ان نشوء الشرائع جاء استجابة لحاجات المجتمع ، فقد استمر الانسان السومرى يعزوها الى ارادة الالهة ، وذلك بدافع اكسابها صفة القدسية . يقول لبت عشتار في مقدمة شريعته " ان الالهة اختارته ليكون حاكما للبلاد لكي يقيم العدالة فيها ، وليزيل الشكوى من النفوس وليجلب الخير الى السومريين

جميعا ." [1] ويقول لبت عشتار بعد حين ، انه استجابة لارادة انليل " اقمت الحرية للابناء والبنات في " نفر " والابناء والبنات في " اور " ... وسومر واكاد وجعلت الاب يعضد ابنائه ، والابناء يعضدون آباءهم ."

وبالرغم من استمرار الانسان السومري في الربط بين قيمه الاجتماعية او بين شرائعه وبين ارادة الالهة ، فان حقيقة جوهرية تكمن في هذا التغير الذى نقصد وهي انه في حين كان اى عمل يصيب الانسان يعتبر من ارادة الالهة ، اصبحت ارادة الالهة ، بعد نشوء الشرائع تتمثل بنصوص هذه الشرائع وحدها . ومما لا شك فيه ان هذه الشرائع قد انبثقت من حاجات المجتمع اليها وليس عن اى شيء اخر . وبنشوء الشرائع اصبح للانسان حق بالعدالة محدد بنصوص ومواد واضحة تطبق على مجموع الشعب .

بدافع هذا المقياس العام ، وبدافع شعور سكان لجش بحقهم في العدالة والحرية ، ثار سكان لجش في منتصف الالف الثالث ق.م . في وجه لوجالندا ، ونصّبوا مكانه "اوروكاغينا" [2] الذى اعاد الحرية للسكان . والجدير بالذكر ان لفظة الحرية وردت في سجلات اوروكاغينا لاول مرة في تاريخ الانسان . [3] لقد كان مواطنو لجش يعون حقوقهم المدنية وعيا عميقا . وبدافع اهمال حكام سلالة اورنانشي لحقوق الشعب ثار السكان في وجههم دفاعا عن هذا الحق .

عندما برزت فكرة الحق ، حق الانسان بالعدالة وحقه بالحرية ، بدأ يتساءل :

---

١. Kramer, Lipit Ishtar Law Code, A.N.E.T., Pritchard(ed.), p. 160.

٢. راجع القصة في الفصل عن الحياة السياسية .

٣. Kramer, From the Tablets of Sumer, p. 40.

اذا كان الشر الذى ينزل بالناس عقابا لهم على خطيئة ارتكبوها فلم يعاقب الانسان احيانا على خطيئة لم يرتكبها ؟ هنا برز الصراع الداخلي بين القيم الاجتماعية التي اتخذها الانسان السومرى مقياسا اخلاقيا له اعلن انه تقبلها كارادة للالهة وبين ارادة الالهة بحد ذاتها التي تظهر احيانا مخالفة لهذه المقاييس . ان الانسان هنا هو في توق عميق لمعرفة سبب هذا التناقض . ويظهر هذا التوق في قصيدة " الصالح المعذب " المشابهة لقصة ايوب في التوراة . وفيما يلي بعض مقاطع هذه القصيدة :

" يا الهي ، ان النهار يشرق بهيا على البلاد ، واما علي
" فان النهار مظلم .
" الدمع والنواح والعذاب والكرب تسكن في داخلي
" الالم يغمرني كانما الدمع نصيبي الوحيد في هذه الدنيا ،
" المصير الاسود يقبض علي بكلتا يديه ينتزع مني نسمة الحياة
" المرض المميض يحم جسمي ...
" يا الهي انت يا ابي ، يا من خلقتني ، ارفع وجهي .
" كبقرة بريئة ، في رحمة ... الالم ،
" الى متى تهملني ، تتركني بدون حماية ؟
" كثور ...
" الى متى تتركني بدون قيادة ؟
" يقولون - ايها الحكماء البواسل - كلمة صائبة وقويمة :
" لم تلد ام طفلا بدون خطيئة ابدا
" .... لم يوجد شاب منذ القدم بدون خطيئة . "[1]

---

١. Kramer, From the Tablets of Sumer, p. 150.

رغم تقوى هذا المعذب فقد نزلت به كل هذه الالام ،والشاعر يسأل عن السبب ، وهو يجيب ،كما يلي في القصيدة ذاتها ، انه لا يمكن تطبيق قيم الانسان على الالهة :

" ما يظهر خيرا في نظر البشر ، قد يكون شرا في نظر اله ما
" ما يظهر شرا في نظر البشر ، قد يكون خيرا في نظر اله ما
" من يقدر ان يفهم خطط الالهة في كبد السماء ؟ "[١]

غير ان هذا الجواب هو جواب عقلي لا يروى القلب الذى يزداد حيرة وتساؤلا . وعندما يقنط "الصالح المعذب" من مصيره يأتيه الاله في النهاية بالخير والسعادة . ان نهاية القصيدة تعبير عن سعة حكمة الالهة واقرار من الانسان بان خططها لا يمكنه فهمها ، وهي دعوة الى الصلاة والتضرع والامل وتسليم الامور للآلهة .

لقد حاول انسان ما بين النهرين ان يضع حدا لقلقه من التناقض بين ارادة الالهة وبين القيم الاجتماعية فكرة " الولادة بالخطيئة " . فاذا كان " لم يولد طفل من ام بدون خطيئة " ،فالالام التي تحل بالانسان والتي يجهل اسبابها احيانا تكون اذا تكفيرا عن هذه الخطيئة التي ولد بها . هذه الفكرة هي بدء توجه الانسان وتوقه الى مخلص من الخطيئة يعطيه الولادة من جديد .[٢] وكان لها اثر كبير في توجيه قيمه الحياتية اذ اعطته املا كبيرا بالمستقبل ،وجعلته يركز جهده على فعل الخير وتحسين حياته في هذا العالم . ويظهر هذا الاتجاه جليا في قصيدة طويلة تعبر عن مقدار الوعي الاخلاقي الذى امتاز به السومريون . ان الارشادات

---

١. Pleiffer, H. Robert, I will praise the Lord of Wisdom, A.N.E.T., Pritchard(ed.), p. 434.

٢. Jacobsen, et. la. Op. Cit., p. 230.

والنصائح التي تحملها هذه القصيدة ليست غريبة عن سماع الانسان في العصر الحاضر:

* كرجل حكيم دع فهمك يشع بتواضع ،
* احفظ لسانك ،زن كلامك ،
* كثروة الرجل ،لتكن شفتاك عزيزتان-
* دع الاساءة والعداوة جانبا .
* لا تتكلم بالزيف ، لا تنصح احدا بالضلال ،
* عندما ترى قتالا ،ابتعد عنه ،
* واما اذا كان القتال قتالك ، فاخمد النار ،
* لان القتال هو جنوح عن الصواب .
* لا ترتكب شرا ضد عدوك ،
* قابل الاساءة بالاحسان ،
* اعط عدوك ما له من عدالة .
* لا تدع قلبك يجنح الى الشر ،
* الذى يطلب الصدقة اعطه طعاما ليأكل :
* اعطه خمر بلح ليشرب،كرمه ، البسه ثيابا :
* لان الهه سيبتهج لهذا ،
* لان الاله شمش يسر لهذا ،
* ويكافئه بالجميل .
* كن مساعدا للآخرين
* افعل خيرا .
* لا تفتوى على احد ،تكلم بما هو جميل .

* لا تنطق بالشر ، تكلم بما هو خير .
* كل من يفترى او ينطق بالشر
* سيرد الاله شمش جزاءة على رأسه .
* لاتفتح فاك كثيرا ، احفظ شفتيك ،
* كلام روحك الدفينة ، لا تنطق به ، حتى في وحدتك .
* ما تقوله بسرعة الان ، ستسترده بعد حين ،
* يجب ان تدرب عقلك ان يضبط كلامك .
* قدم الخضوع لالهك يوميا ،
* قدم الضحايا ، والصلاة ، والبخور .
* يجب ان تشعر بالجزع نحو الهك :
* هذا ما يلائم الالهة .
* ان تقديس يجلب الخير
* والتضحية تطيل الحياة
* الصلاة تكفر عن الخطيئة ،
* من يخاف الالهة ، لا تحتقره الالهة
* من يعبد الاناكي تطول ايامه .
* لا تنطق بالشر مع صديق او رفيق ،
* لا تنطق باى شيء سافل ، تكلم بما هو مفضل .
* اذا وعدت ، اعط ....

" اذا شجعت ، ساعد . "[١]

ان الوتر الذى يهتز في صدر الانسان الحديث عند سماعه هذه القصيدة ، مرده الى التشابه الكبير بينها وبين الموعظة على الجبل في الانجيل .

بالاضافة الى هذا ، فان الامثال الشعبية التي كانت شائعة بين الناس تتفق مع الخط الاخلاقي العام الظاهر في هذه القصيدة . وطبيعي ان تعبر الامثال الشعبية بصورة ادق من القصيدة ، عن القيم الفعلية التي كان يؤمن بها عامة الشعب ويهتدون بهديها . من هذه الامثال ما يلي :

" شرا لا تعمل فتحصل على كنز ابدى . "[٢]

" اذا اتيت وسرقت محصول حقل سواك ،

" يأتي شخص اخر ويسرق محصول حقلك . "[٢]

" لا تقم بعمل عاطل ، لا يدخل الهم الى قلبك . "[٣]

" اذا لم اذهب انا لانجاز مهمتي من ينجزها لي ؟ "[٣] ما دام المرء لا يبذل جهدا كبيرا لا يحصل على شيء . "[٣]

---

١. Pleiffer, H. Robert, Akkadian Proverbs & Counsels, A.N.E.T., Pritchard(ed.), p. 426.

يضع برتشرد هذه النصائح تحت عنوان "امثلة وحكم اكادية "، بينما يضعها لانجدون (Langdon) في كتابه (Babylonian Wisdom) تحت عنوان "حكم بابلية " وتختلف الترجمة قليلا بين الاثنين . وقد اعتمدنا هنا ترجمة بلايفر الموضوعة في برتشرد ، لكونها ترجع القطعة الى العهد الاكادى ، غير ان تاريخ كتابتها بالضبط لا يعرف .

٢. Langdon, Op. Cit., p. 213.

٣. Pleiffer, Akkadian Proverbs & Counsels, A.N.E.T., Pritchard(ed.), p. 425.

هذه الامثلة هي امثلة اخلاقية ـ اجتماعية صرفة . انها نتاج تجربة اجتماعية ، تمكن الانسان بعدها من التمييز بين ما هو خير وما هو شر . ولكن السومريين ، وسكان ما بين النهرين عامة ، لم يقدروا ، حتى في ابان تبلور الوعي الاجتماعي عندهم ان يغفلوا الوجه الديني من حياتهم وكان توقهم لمعرفة ارادة الالهة والعمل بموجبها ناتج عن رغبتهم في ان يحيوا بانسجام مع الطبيعة . ولكن كيف يقدر الانسان السومري ان يحيا هذه الحياة ما دام جاهلا لارادة الالهة ، عاجزا عن فهم مقاصدها ؟ ان المشكلة الرئيسية هنا تكمن في السؤال الذي عبرت عنه قصيدة "المعذب الصالح" تعبيرا عميقا . لقد تسرب الشك هنا الى يقين السومريين وصار هذا الشك يقلق اطمئنانهم الى القيم التي اتخذوها هديا لهم في اعمالهم ، كما زاد نزوعهم نحو التشاؤم ، وبرزت فكرة العبث ، محور الوجودية الحديثة ، في تفكيرهم . ويظهر التعبير عن العبث وفقدان معنى القيم ، جليا اكثر ما يكون في قصيدة الحوار بين "السيد والخادم" ، التي نقدم بعض المقاطع منها هنا :

ـ " ايها الخادم استمع الي . "

ـ " نعم يا سيدي ، نعم . "

ـ " اسرع احضر ماء لاغسل يدي

" اعطني ماء ، لانني ساقدم ضحية لالهي . "

ـ " افعل يا سيدي ، افعل . الذي يقدم ضحية لالهه يسر قلبه .

انه يضيف دينا على دين . "

ـ " كلا ، ايها الخادم ، لن اقدم ضحية الالهي . "

ـ " لا تفعل يا سيدي ، لا تفعل ، وهل تعلّم الاله ليمشي خلفك كالكلب؟! "

= = = = = = = = =

- " ايها الخادم استمع الي . "
- " نعم يا سيدى ،نعم . "
- " اريد ان اتصدق عن ارضي . "
- " افعل يا سيدى ،افعل
" لان الذى يتصدق عن ارضه
" فان صدقاته توضع في كف الاله مودوخ نفسه . "
- " كلا ،ايها الخادم ، لن اتصدق عن ارضي . "
- " لا تفعل ياسيدى ،لا تفعل
" اهبط الى خرائب المدن ، اذهب الى القديمة منها
" تمعّن في جماجم الاولين والاخيرين
" من منهم الان الشرير
" ومن منهم الصالح ؟! "

= = = = = = = = = =

- " ايها الخادم استمع الي "
- " نعم يا سيدى، نعم "
- " ما هو الخير اذن؟ "
- " ان ادق عنقي وعنقك
" ونرمي انفسنا بالنهر هذا هو الخير .
" من له طول السماء ليرقى اليها ؟
" من له فسحة الارض ، ليسعها ؟ "
- " كلا ايها الخادم ، سأذبحك ،وارسلك امامي . "

- " وهل يبقى سيدى ثلاثة ايام حيا بعدى ؟ !"[1]

يجسد هذا الحوار شعور الانسان السومرى في العصور المتأخرة بتفاهة الحياة وتفاهة القيم التي يتعلق بها . فلا الخير ولا الشر ينقذه من المصير المحتم . الصلاة وتقدمة الضحايا لن تفيد في شيء ، فهي لن تعلم الالهة ان تطيع الانسان - اوان تمشي خلفه كالكلب حسب النص الاصلي . وفي هذا النص من السخرية بالالهة ، التي تمثل للانسان القوة المطلقة المسيطرة على مصيره ، ما تقصر عنه سخرية الوجوديين المحدثين . ان المصير معلوم منذ البدء . فما هو الحل اذا ؟ الموت هو الحل الاكبر . الموت هو الهرب من الحل . "ان ندق رقابنا ونرمي انفسنا في النهر هذا هو الخير ."

هذا الاتجاه الاخلاقي الذى برز في العصور السومرية المتأخرة يختلف اختلافا بينا عن الشعور باليقين والاطمئنان الذى كان سائدا في البدء . قد يكون تزعزع هذه القيم بدء الانحلال الاجتماعي الذى يرافق تضعضع المجتمع وانهياره عادة ، كما هو مألوف في تاريخ انتهاء معظم حضارات العالم . غير انه لا مجال للتكران بان تساؤلات كهذه ، وتشكك من هذا النوع له قيمة فلسفية عليا ، باعتباره القنطرة التي يعبر الانسان فوقها من نظرة فلسفية الى نظرة اخرى ، ومن حضارة الى حضارة نحو قيم متجددة باستمرار . ان منطق التطور الفكرى يحتم مثل هذا التشكك .

مهما تكن الحال ، فان الطابع الاخلاقي العام الذى ميز حضارة السومريين ، بقي رغم كل هذا ، طابعا اخلاقيا ساميا يمتاز باحترام عميق وتقدير للقيم الخيرة . لقد كان السومريون شعبا " يقدس الخير والحق والقانون والنظام والعدالة والحرية والاستقامة والشفقة والرحمة ، ويكره الشر والكذب والغوض والظلم والضغط

---

1. Langdon, Op. Cit., p. 204.

والاثم والغظاظة وعدم الشفقة . وكان ملوكهم يفتخرون باستمرار بانهم اقاموا النظام والقانون في البلاد وحموا الضعفاء من الاقوياء والفقراء من الاغنياء ،وازالوا الشر والعنف من البلاد ".[١]

---

١. Kramer, From the Tablets of Sumer, p. 97.

الفصل الرابع

التربية والتعليم في سومر

التربيـــة والتعليم في سومر

لا يمكن تتبع نشوء المدارس في سومر والفلسفة التربوية والطرائق المتبعـــة في هذه المدارس بانفصال عن الاطار التاريخي الذى عاشوا ضمنه وعن باقي مناحـــي حياتهم وتفكيرهم . لهذا عمدنا في الفصول السابقة الى التكلم عن المراحل التاريخيـة التي مر السومريون بها واعطينا لمحة عن طرائق حياتهم من مناحيها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وشيئا عن تفكيرهم وفلسفتهم من مختلف اوجهها . واصبح بالامكان الآن تفهم التربية السومرية بتعمق وشمول اكثر من قبل .

لا بد في بدء هذا الفصل من طرح سلسلة من الاسئلة الهامة للربط بيـــن هذا الفصل وبين ما سبقه . هذه الاسئلة هي : ما هي اهمية التأكيد على المراحـل التاريخية التي مر بها الانسان في ما بين النهرين وعلى السمات الحضارية الخاصة بكل مرحلة عند بحث التربية في سومر ؟ ما هي علاقة النظم الاجتماعية والاقتصاديـــة والسياسيـة بالتربية ؟ ما هو الرابط بين نظرة الانسان السومرى الى الكون واصـــل الوجود (الميتافيزيا) ونظرته الى المعرفة (الابستمولوجيا) ونظرته الى الاخلاق والقيم (الاكسيولوجيا) وبين التربية السومرية ؟ وبشكل عام ما هي العلاقة بين التربيـــة والحضارة ؟

السؤال الاخير هو سؤال افتراضي بحت اذ لا يمكن تصور حضارة ما بدون تربية . لان ايا منهما لا يكون له وجود بدون الاخر . ذلك لان التربية بمعناها الشامـــل العميق هي عملية استمرار حضارة ما وتجددها باستمرار وفق المتطلبات الحياتيـــة المتجددة باستمرار . انها الخيط الذى يربط الماضي بالحاضر والانسان بالانســان

الاخر ، ولولاها لانقطع الماضي وغاب كل ما يحمل من اختبارات بشرية مع غياب كل شخص فرد ، ولا نعزل كل انسان عن الاخر فاستحال التفاعل وبالتالي قيام الحضارة . انها العملية التي تعمم اختبارات الشخص الفرد وتصلها باختبارات الاخرين فتجعل من المجموعة البشرية وحدة مجتمعية ذات خصائص مشتركة . انها جوهر اجتماعية الانسان وبالتالي جوهر الحياة الانسانية .

بهذا المعنى يصبح ان التربية السومرية رافقت نشوء الحضارة السومرية منذ اختلاجاتها الاولى . عندما اكتشف الانسان لاول مرة ان باستطاعته ان ينجح بتصيد الحيوانات بضربها بالحجارة الحادة اكثر مما ينجح لو اقتصر على استعمال يديه في صيدها ابتدأت اصول الحضارة (Culture) . وعندما صار يعلم غيره ، وخاصة اولاده ، استعمال هذه الوسيلة الجديدة في الصيد ابتدأت التربية .[1] ومن غير المقبول منطقيا ، من الناحية العملية ، ان يحتجز الانسان معرفته لافضلية الصيد بالحجارة عن سواه من الناس ان لم يكن معزولا عنهم تماما . كما ان استمرار وجود الانسان على الارض واستمرار تقدمه هو دليل راسخ على استمرار تعلمه وتعليمه وبالتالي استمرار الحضارة . لهذا فاكتشاف افضلية الصيد بالحجارة واستعمالها موافق لتعليمها بصورة مباشرة او مداورة ، وبالتالي ان الحضارة موافقة وملازمة للتربية ، ويصح العكس .

يستحيل على الباحث في الوقت الحاضر ان يتتبع تطور التربية المدرسية وكيفية نشوئها وان يتعرف على وسائلها في بلاد ما بين النهرين قبل ظهور الكتابة في حدود

---

١. Butts, R. Freeman, A Cultural History of Education (New York: McGraw-Hill, 1947), p. 9.

الى ٣٥٠٠ ق.م. ولكن التأكيد على ملازمة التربية للحضارة وعدم انفصال الواحدة منهما عن الاخرى يساعد الباحث على استخلاص آراء هامة حول نشوء التربية وتطورها قبل ظهور الكتابة ، ليس في بلاد ما بين النهرين وحسب ، وانما في اى مكان اخر.

تتلخص هذه الاراء بان الانسان باعتباره منذ نشأ كان يتميز بحاجات فيزيائية معينة عليه اكفاؤها ، خاصة حاجته الى الطعام ، كان لا بد له من ان يسعى للحصول على الطعام ، وان يحتك ، في مسعاه ، مع العالم الخارجي ، مع امه اولا وقبل الاخرين ، ثم مع الارض والحيوانات والناس الذين يعيشون على هذه الارض. وتعتبر هذه المرحلة الاولى في تاريخ الانسان مرحلة جمع الطعام ، حين كان الانسان معتمدا اعتمادا كليا على ما تقدمه له الطبيعة ، يأكل ما يلقاه في البرارى . ولكنه حتى في هذه الحالة لا بد انه كان يميز بين ما يصح اكله وما لا يصح ، وبين ما ينبغي الحصول عليه وما لا ينبغي ، وبالتالي كان قد ابتدأ يتعلم عمليا . وكان لا بد لهذا التعليم ، بحتمية الاستمرار التاريخي ، ان ينتقل الى طور اخر ، حين ابتدأ الانسان يفعل في البيئة لا ينفعل بها فقط ، هذا الطور الاخر هو طور التعليم . ابتدأ الانسان لا يتعلم فحسب ، بل ينقل ما يتعلمه الى سواه من الناس . وهذا ما يفسر انتقاله من طور جمع الطعام الى طور صنع الطعام او انتاجه . وقد سبقت الاشارة الى ان الانسان عندما نزل جنوب بلاد ما بين النهرين ، كان قد قطع المرحلة الاولى - مرحلة جمع الطعام ، واتبح فور وصوله طريقة زراعية في الحياة . اى انه منذ نزوله في سومر كان مجهزا بالاختبارات والتجارب التي جعلته انسانا لا متعلما فحسب بل ومعلما كذلك .

يجب التمييز منذ البدء بين نوعين او طريقتين في التربية . الاولى هي التربية غير الرسمية (Informal Eduaation) ، التي تجرى في المجتمع بصورة طبيعية

دونما قصد او تصميم من قبل السكان على تعليم بعضهم البعض . والنوع الثاني هو التربية الرسمية او المدرسية (Formal Education) التي تجرى ضمن مؤسسات تنشأ تلبية لحاجة المجتمع اليها ، هي المدارس . وفي المدارس يجرى التعليم عن قصد ، ويتجه نحو هدف واضح .

فيما يتعلق بالنوع الاول ، اى التربية غير الرسمية ، فانها عملية ملازمة للحياة . اذ ان كل اختبار يمر به الشخص ، ان في البيت ، او الحقل ، او المعبد ، او اى مكان اخر يؤثر في شخصيته بصورة تدريجية وبطيئة قد لا يشعر هو بها ، وانما مع تراكم الاختبارات والتجارب التربوية ينمو الفرد ويصبح ما هو .

طبيعي ان يكون البيت هو المكان الاول والرئيسي الذى يتلقى فيه الانسان التعليم لاول مرة . ففي البيت يفتح عينيه على العالم الخارجي اول ما يفتح ، وعلى يدى امه خاصة وبقية افراد عائلته عامة يبدأ في تلقي اختباراته الاولى في الحياة . ومن خلال معتقداتهم وطرائق حياتهم وسلوكهم تبدأ معتقداته وطرائق حياته وسلوكه تتخذ اشكالا معينة . ان العائلة في ما بين النهرين - وقد ظهر قبلا مقدار اهميتها في المجتمع السومري القديم - هي المؤسسة الاولى التي كانت تترك طابعها الراسخ في شخصية الفرد ، وتتمم احدى الغايات الرئيسية للتربية وهي توجيه الفرد وتدريبه على الانخراط في المجتمع والتطبع بمفاهيمه وعاداته ، كما تعمل على تجهيزه بالمعارف والعادات والمهارات والمعتقدات التي تجعله جزءا من المجتمع متسقا مع بقية افراده لا نشازا عليهم . وواضح ان العائلة لا تزال تلعب الدور ذاته في تربية الفرد في العصر الحاضر مع الاختلاف في قوة المؤثرات غير العائلية في التربية بين العصور الاولى والعصر الحاضر .

لم يكن البيت وحده يعمل على تطبيع الفرد واكسابه الصفات الاجتماعية

الضرورية له . وانما جميع المؤسسات الفاعلة في المجتمع بما تحمل هذه المؤسسات من مفاهيم ومعتقدات وطرائق حياة كانت تشترك في اتمام هذه المهمة . من هنا يمكننا الانتقال الى استنتاج هام ، هو ان ايمان الانسان العراقي القديم بالاحيائية (Animism) اى بان لكل شيء في الكون روح وارادة، لا بد كان يؤثر في طبيعة التربية التي يتلقاها الفرد بصورة غير رسمية ، من خلال نشاطاته في المجتمع . كما ان هذه التربية لا بد كانت تجرى على طريقتين : الطريقة الاولى تؤمن تدريب الاولاد لبلوغ ضروريات الحياة العملية . هذا التدريب لا يقتصر على تعليم كيفية القيام بعمل ما - كالصيد ، او الزراعة ، او بناء الاكواخ ، ولكن على تعلم كيفية القيام بكل من هذه الاعمال بالطريقة المحددة المعينة المنبثقة من اختبارات العائلة او العشيرة والمبرهن على انها لا تغضب او تسيء الى " روح " هذه الاشياء كيما يتسنى له اتمام العمل الذى يرغب القيام به بنجاح .[١] وبالتالي ان يؤمن من خلال قيامه بهذه المهمة تناسق ارادته ورغبته مع ارادة ورغبة العالم الخارجي الذى يتعامل معه ، باعتبار ان الكون بالنسبة له هو اتساق قوى او ارادات مختلفة .

والطريقة الثانية هي التدريب على العبادة والمواسيم الدينية التي يحاول الانسان بواسطتها ان يسترضي ارواح الالهة ، هذا التدريب يتخذ شكل الطقوس التقليدية التي يتطبع الفرد بواسطتها بصفات المجموع .

الطريقة الاولى تشكل الناحية العملية من التربية بينما تشكل الطريقة الثانية الناحية النظرية التي ينبثق منها تفسير الانسان للاشياء ، كما يستخلص منها آراءه الدينية والفلسفية والعلمية . وطبيعي ان هاتين الناحيتين للتربية متصلتان تغني

---

١. Monroe, Paul, A Text Book in the History of Education (New York : Macmillam, 1905), p.40.

الواحدة منهما الاخرى وتؤدي الى تطويرها .

الهدف الرئيسي للتربية غير المدرسية كما كانت تطبق في المجتمع السومري وفق هاتين الطريقتين كان " توجيه الفرد ليتلاءم مع بيئته المادية وغير المادية بواسطة انماط معينة ومقررة من السلوك ثم اختبار صحتها تجريبيا . ان الفرد يخضع لهذه الانماط الجماعية خضوعا تاما ، وهدف التربية ان تسهل هذا الخضوع . ليس للفرد حقوق او مصلحة مغايرة لمصلحة المجموع ، ولهذا فان التربية غير المدرسية كانت تهدف الى اذابة شخصية الفرد وصهرها ضمن شخصية الجماعة والتقاليد السائدة في المجتمع".[1]

الا انه مع اتساع الحاجات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في بلاد الرافدين كان لا بد من ازدياد اهتمام السكان بتأمين اليد العاملة للحاجات الجديدة المتزايدة . ان التطور الزراعي الذي شهدته بلاد الرافدين من مد الاقنية ، وتجفيف الاراضي والتفنن في الزراعة كما مر قبلا ، والتطور الصناعي خاصة في حقل التعدين ، حتم ازدياد حركة التعليم بالتمرين (Apprenticeship) . وقد عرف هذا النوع من التعليم قبل نشوء الكتابة وبعدها ، بدليل انتشار النقابات العمالية (Guilds) والتخصيص في الحرف ، حتى ان الولد كان يرث حرفة ابيه . وكان افراد العائلة الواحدة يحاولون حصر معلوماتهم المتعلقة بصناعة ما باعضاء العائلة حتى لا يأخذها منهم الاخرون . " كل عامل كان يعلم حرفته لاولاده ، وهؤلاء يعلمونها بدورهم لاولادهم . العائلات التي كانت تتوارث حرفة معينة كانت تجعل من نفسها نقابة لها رؤساؤها وزبائنها . حتى ان التعريف عن شخص ما لم يكن تاما ما لم يذكر لاي نقابة ينتمي - لنقابة الحياكين او الحدادين

---

1. Ibid., p. 5.

او تجار الحبوب ."[١] حتى النساء اللواتي كن يتحملن عبء العمل المنزلي كن يدربن بناتهن على الاعمال التي ينتظر منهن القيام بها . كما ان العبيد كانوا يدربون في الاعمال التجارية على ايدى معلمي الحرف او عبيد اخرين يتقنون حرفة ما . وكان المعلم لا يتقاضى رسوما لقاء تدريبه التلميذ بل يكتفي بعمل التلميذ وبالوقت الذى يصرفه بخدمته .[٢]

ان التعليم بالتدريب على ايدى الاخرين اول نوع من التعليم في تاريخ الانسان ، ولا شك انه رافق الخلجات الحضارية الاولى للانسان ، قبل معرفته للكتابة وقبل نشوء التعليم المدرسي ، كما انه استمر بعد معرفته للكتابة ولا يزال يمشي جنبا الى جنب مع التعليم المدرسي .

على ان الحدث الهام الذى يعتبر اثمن ما اعطته الحضارة السومرية للعالم هو الكتابة . وقد مر قبلا ان الاشارات الكتابية الاولى ترجع الى النصف الثاني من طور الورقاء اى في حدود ال ٣٥٠٠ ق.م. جنبا الى جنب مع نشوء القرية والبلدة. وتعد تلك الاشارات اولى محاولات التسجيل في تاريخ الحضارة البشرية .

---

١. Maspero, G., The Dawn of Civilization (London: Sp. C.K., 1894), p.

من المحتمل ان "اوتونابشتم" في قصة الطوفان المثبتة في ملحمة جلقامش يذكر انه وضع في السفينة جميع الحرفيين خوفا من ان يغرقهم الطوفان وتضيع مهاراتهم . (القصة موجودة في بوتشرد ص. ٩٤ .)

٢. Woody, Thomas, Life & Education in Early Societies (New York: Macmillan, 1949), p. 85.

عندما انتقل الانسان من طور الحياة العائلية والقبلية الى طور الحياة الفردية ، برزت مشكلة الملكية بشكل اكثر تعقدا من قبل . ففي حين كان الاتفاق سائدا في البدء على ان رأس العائلة هو مالك جميع ما يقع تحت تصرف افراد العائلة ، اصبح هناك احتمال كبير عند نشوء القرى واختلاط مصالح الناس بعضها مع بعض ، بان تختلط حقوق الملكية وان يدعي شخص ما ملكية شيء ليس له . لهذا كان لا بد من قيام نوع من التسجيل يحدد ملكية الشيء منعا للالتباس . وكانت الاختام الشخصية اول نوع من انواع التسجيل استعمل في العصور المعدنية الاولى .

في اواخر طور الورقاء اى في حدود ٣٣٠٠ ق.م . عندما اصبحت البلدة المجتمع الاكمل لسكان ما بين النهرين واصبحت المعابد محور نشاطاتهم ، استقرت على اكتاف الكهنة ، مدراء المعابد ، مسؤولية ادارة الثروات المتراكمة التي تخص الهة المعابد . وادارة هذه الثروات كانت تتطلب حفظ سجلات صحيحة لجميع واردات المعابد ونفقاتها بشكل يستطيع معه خدام الالهة تقديم الحساب عن ادارتهم . ولهذا كان من الضرورة ايجاد نوع من التسجيل يكون مفهوما ليس من قبل الموظف الذى يقوم بهذا التسجيل وحسب ، وانما من قبل خلفه وجميع من يشاركونه عمله ايضا . فكان على رئيس مصنع البيرة مثلا ان يسجل كميات الشعير التي يتسلمها ومقدار البيرة التي يسلمها ودرجة قوتها برموز ليس لها معنى بالنسبة له فحسب وانما لها نفس المعنى بالنسبة لخلفه ولمراقب العنابر ولسائر زملائه [١] .

---

١. Childe, What Happened in History, pp.103-104.

ترجمة ، حداد ، جورج ، ماذا حدث في التاريخ (القاهرة : الشركة العربية ، مشروع ال ١٠٠٠ كتاب) ، ص ص. ١٠٢ - ١٠٣

هذا الاتفاق على معاني الرموز هو جوهر الكتابة . ومن الضروري التأكيد على ان معظم هذه الرموز المسجلة على اقدم اللوحات تشرح نفسها بنفسها ، اى انها كانت علامات تصويرية (Pictographic Signs) . ولكن حتى ابسط هذه العلامات كانت اصطلاحية بمقدار قليل او كثير . فلأجل الدلالة على كوخ ، مثلا لم يكن من الضروري ان يرسم على اللوحة صورة فوتوغرافية للكوخ ، وانما يكفي لذلك رسم مختزل مختصر . والمختصرات التي استعملت على اقدم اللوحات كانت تظهر بعض التنوع على انها كانت تتخذ بسرعة شكلا معينا . وهذا يعني ان شكلا خاصا مختزلا للكوخ قد اتفق عليه بالتدرج واجمع على استعماله افراد الجمعية اوالنقابة .[1]

بهذه الكتابة الصورية استطاع الكتبة الاقدمون ان يدونوا الاشياء المادية وذلك برسم صورة موجزة لها . ولكنهم وجدوا انه يعسر التعبير عن المعاني المجردة بالطريقة الصورية المحضة . فاهتدوا الى ابتكار الطريقة الرمزية (Ideographic) اى طريقة التعبير عن الافكار والمعاني المجردة بالصور ، بان يرسموا الصورة المادية بهيئة مختصرة ، ولا يريدون بها صورة الشيء المادى وانما المعاني والافكار المشتقة منه او المتعلقة به . فمثلا اصبحت صورة القدم ، بحسب الطريقة الرمزية ، لا تستخدم للتعبير عن القدم كشيء مادى وحسب ، بل للتعبير عن المعاني المتعلقة بالقدم كالقيام والمشي والوقوف والدخول والخروج . كما صارت صورة الشمس لا تعني جرم الشمس وانما المعاني المشتقة منها كالحرارة والضوء واليوم الخ . وبجمع الطريقة الصورية المحضة والطريقة الرمزية صار بالامكان التعبير عن معان وجمل كثيرة . ولكن مع ذلك ظلت الكتابة ناقصة لا يمكن التعبير بها عن المعاني المضبوطة لاحتمال التفسيرات وقرائتها

---

١. Childe, What Happened in History, pp.103-104.

وتأويلها باشكال مختلفة . فخطى القوم خطوة اخرى هي الاصطلاح على ما تقوم له تلك الصور وتحديد المعاني للصور المختلفة . ولكن مع ذلك بقي من المستحيل على الكتبة ان يعبروا بالطريقة الرمزية وحدها عن الاراء المجردة كالصدق والامانة وعن الالوان الخ . كما انه يتعذر كتابة اسماء الاعلام او الاشخاص . فدعت الحاجة لتلافي هذا النقص الى تطور او تحسن جديد هو استخدام اصوات الاشياء المادية المكتوبة بالصور للكتابة الكلمات المختلفة . وهذه هي الطريقة الصوتية (Phonetic). وهكذا استخدم السومريون الاول الصور واصواتها لا لتدل على الاشياء المادية التي تمثلها تلك الصور ، كما في المرحلة الصورية ، ولا على الاراء والافكار المشتقة منها كما في المرحلة الرمزية ، بل لاستخدامها في كتابة الكلمات والجمل على هيئة اصوات (Syllable) وبجمع عدة اصوات يكون كل منها مقطعا وليس حرفا . لانهم لم يصلوا الى الطور الهجائي (Alphbetical) اى استخدام الحروف الهجائية . فاذا ارادوا مثلا ان يكتبوا اسم شخص مثل " كوراكا " فانهم يرسمون صورة مختصرة للجبل . لان لفظة الجبل " باللغة السومرية هي " كور " ، ثم يرسمون بجنبها صورة مختصرة من خطين تمثل موجات الماء للتعبير عن صوت "آ" ويعني الماء باللغة السومرية ، ثم صورة مختصرة للفم الذى يلفظ باللغة السومرية " كا " فيحصلون بذلك على كتابة كلمة "كور - آ - كا "ولكن ليس لهذه الكلمة اية علاقة بالجبل ولا بالبحر ولا بالفم ، ولهذا السبب تعرف اللغة السومرية باللغة الملصقة (Agglutinative) اى الصاق مقاطع بعضها البعض لتكوين كلمة . وقد وصل السومريون الى هذا الطور من الكتابة في الطور الاول الذى اعقب طور الورقاء ، اى انهم اهتدوا الى الطور الصوتي في الكتابة في دور "جمدت نصر" في حدود ٣٢٠٠ ق.م . واستمرت الكتابة بالتطور والتحسن حتى استطاعوا ان يدونوا بها جميع شؤون الحياة . [١]

---

١. باقر ، طه ، نفس المصدر السابق ، ص. ٣٠٨ - ٣٠٩ .

ولكن لم يقف تطور الكتابة عند هذا الحد بل طرأت عليها تغيرات كثيرة اخرى ، منها انه بعد ان ابتعد الخط المسمارى عن الطور الصورى ودخل في الطور الصوتي واصبحت الغاية من الصور ليس التعبير عن الاشياء المادية التي تمثلها هذه الصور بل اصوات الاشياء ، لم يهتم الكتبة في ضبط رسم تلك الصور بل اخذوا يختصرون في اشكالها كثيرا . وبمرور الزمن بعد الشبه بين اشكالها واشكال الاشياء التي كانت تمثلها ، ودخلت في الكتابة علامات اصطلح عليها للتعبير عن اصوات خاصة كما انهم ركبوا عدة علامات للتعبير عن معان واصوات مركبة . وقد احدثت طبيعة المادة التى كتبوا عليها ، وهي الطين ، تغييرات اخرى في شكل الكتابة ، اذ يصعب رسم الخطوط المنحنية على الطين . وباستخدامهم قلما مثلثا اصبحت العلامات تنتهي بما يشبه الاسافين . ومن هنا منشأ الاسم ، الكتابة الاسفينية (Cuneiform) . واتخذوا وضعيات محدودة للاسافين منها ما هو افقي ، ومنها ما هو عمودى او مائل ، ومنها ما هو على شكل رأس السهم . وبجمع عدة خطوط من هذه الوضعيات كانوا يكتبون العلامات الاسفينية المختلفة التي بلغت في اقدم اللوحات التي ترجع الى عصر الورقاء نحو ٢٠٠٠ علامة . ولكن عدد هذه العلامات اخذ يتناقص مع مرور الايام حتى اصبح بعد عام ٣٠٠٠ ق.م . نحو ٨٠٠ علامة ، وفي حدود ٢٥٠٠ ق.م . نزل العدد الى حوالي ٦٠٠ علامة . وقد استعمل من هذه العلامات حوالي ١٠٠ - ١٥٠ علامة استعمالا صوتيا صرفا ، اى بهيئة مقاطع صوتيه ، والباقي من العلامات اقتصر استعماله على الطريقة الرمزية ، اى ان العلامة الواحدة كانت تقوم مقام كلمة . وبوجه الاجمال كان الخط الاسفيني خليطا من الطريقة الصوتية المقطعية والطريقة الرمزية . ومما يجدر ذكره بهذا الصدد ان الكتابة الهيروغليفية المصرية لم تمر بمثل هذه التغيرات والتطورات بل حافظت على اشكالها الصورية الى نهاية الحضارة المصرية تقريبا ، بينما كان الميل قويا فيما

بين النهرين منذ البدء ، الى استعمال الاشارات والاشكال الرمزية .[1] (انظر الصورة: تطور الخط الاسفيني)

نشوء المدارس: ان صعوبة الكتابة السومرية وحاجة المعابد الماسة الى الكتبة لحفظ سجلات ومعاملات المعبد دعت الى قيام اول نوع من التعليم المدرسي (Formal Education) اتخذ مكانه الاول داخل المعابد السومرية . لهذا تعتبر المدرسة السومرية نتيجة مباشرة لنشوء وتطور الكتابة الاسفينية . فالوثائق الكتابية الاولى التي عثر عليها في مدينة الورقاء تتكون من اكثر من الف لوحة طينية صغيرة منقوش عليها نغدات صغيرة من الحسابات والامور الاقتصادية . وقد عثر بين هذه الوثائق على كثير من اللوحات التي تحمل جداول من الكلمات بقصد دراستها والتمرن على كتابتها . اى انه منذ حوالي ٣٠٠٠ ق.م . كان بعض الكتبة في ما بين النهرين يفكرون بالتعليم والتعلم . وكان التطور بطيئا في القرون التي تلت ، ولكن في منتصف الالف الثالث ق.م . لا بد ان تكون سومر قد عرفت كثيرا من المدارس لتعليم الكتابة . وقد عثر في مدينة شوروباك (فارا) موطن " نوح " السومريين في عام ١٩٠٢ - ١٩٠٣ على عدد كبير من اللوائح التي ترجع الى حوالي ٢٥٠٠ ق.م . وهي عبارة عن لوائح مدرسية (Text Books)[2]

على اية حال ففي النصف الثاني من الالف الثالث ق.م . بلغت المدرسة في سومر مرحلة النضج . فقد عثر على عشرات الالوف من اللوحات المدرسية ترجع الى هذه الفترة . ومما لا شك فيه ان مئات الوف اللوحات الاخرى لا تزال مطمورة في

---

١. باقر ، طه ، نفس المصدر السابق ، ص ٣١١ .

Frankfort, The Birth of Civilization in the Near East, p. 131.

٢. Kramer, From the Tablets of Sumer, p. 3.

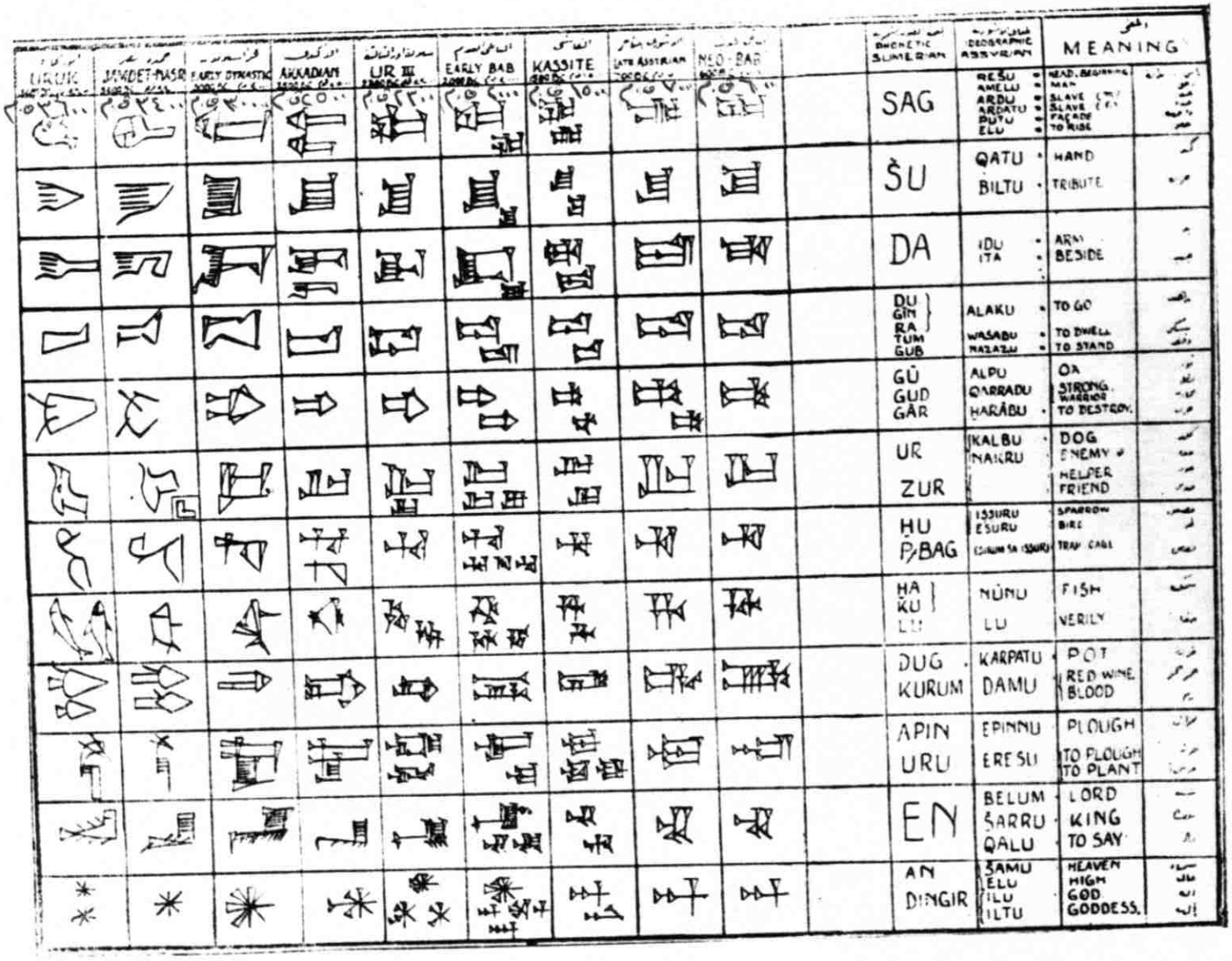

تـــطور الخـــط الاسفينـي من ٣٦٠٠ ق.م. حتى ٦٠٠ ق.م.

باطن الارض بانتظار من يكتشفها . تتعلق معظم هذه اللوحات بامور اقتصادية وادارية . والمهم في الامر ان وجود هذا العدد الكبير من اللوحات التي ترجع الى ذلك التاريخ القديم هو دليل ساطع على ان عدد الذين كانوا يعرفون الكتابة آنذاك كان لا بد يحصى بالالاف. ويمكننا ان نستنتج من دراسة هذه اللوحات انه كان يوجد انواع مختلفة من الكتبة . فهناك الكتبة "المحدثون" ، والكتبة " الخبراء " ، والكتبة الذين توكل اليهم مسؤوليات حكومية . وكان هؤلاء الكتبة يشكلون نقابة قوية تعتبر الهها الاله نابو (Nabu) او نيبو (Nebo) كما جاء في التوراة وكان يرمز اليه برقيم طيني واسفين للكتابة . وكان نابو يوصف بانه " مخترع كتابة الكتاب" او الكاتب الذى لا يقهر " " او كاتب الالهة " .[1] هذه اللوحات الكثيرة ، والاشارات المختلفة، اى وجود انواع مختلفة من الكتبة، تدل ، مما لا يقبل الشك ، ان عدد المدارس التي كانت متوفرة في ذلك التاريخ كان كثيرا .

على ان اللوائح التي عثر عليها من النصف الثاني من الالف الثالث ق .م . تخلو من اى تطرق مباشر الى النظام المدرسي الذى عرف آنذاك ، والى نوع تلك المدارس وعملها وطبيعتها . ولكن بالامكان الحصول على مثل هذه المعلومات من اللوائح التي ترجع الى النصف الاول من الالف الثاني ق.م . اذ ان مئات اللوحات التي عثر عليها والتي ترجع الى هذا التاريخ هي عبارة عن تمارين كتابية تتراوح بين اشارات لا معنى لها ، هي المحاولات الاولى للمبتدئين في الكتابة ، وبين الكتابة الجميلة الواضحة التي هي من نتاج طلاب على عتبة التخرج . بالامكان الاستدلال من هذه اللوائح

---

١. Driver, Godfrey Rolles, Semitic Writing From Pictographic to Alphabet (London: British Academy, 1948), p. 64.

المدرسية) اشياء كثيرة عن طرائق التعليم التي كانت متبعة في المدارس السومرية وعن طبيعة المنهاج . ومن حسن الحظ ان المعلمين السومريين الاول قد رغبوا في ان يكتبوا عن حياتهم المدرسية بانفسهم . وقد عثر على عديد من هذه الكتابات .

من هذه المصادر الاولية تتجمع للباحث معلومات هامة حول المدرسة السومرية - اهدافها ومناهجها وطرائق التعليم فيها وطلابها واساتذتها . ان الحصول على مثل هذه المعلومات عن المدارس الاولى في تلك الفترة السحيقة من تاريخ الانسان ذو اهمية خاصة في تبيان الاسس التربوية للحضارة .[١]

شكل المدرسة السومرية وموقعها : نشأت المدرسة السومرية الاولى ضمن المعابد السومرية . فالكهنة بطبيعة عملهم كوكلاء او مشرفين على امور المعبد كان عليهم قبل سواهم ان يعرفوا الكتابة . وهكذا نشأت بين جدران المعابد اولى عمليات التعليم الرسمي (Formal Education) . ولكن تدريجيا اخذ التعليم يجرى في غرف مستقلة عن المعبد ولكنها ملحقة به الى ان استقلت المدرسة نهائيا عن المعبد واصبح لها بناء خاص . ذلك لان تطور شؤون المجتمع وازدياد حاجته للكتبة ، ليس فقط لتيسير اعمال المعابد ، بل لتيسير مختلف الاعمال الادارية في الدولة ، استدعى قيام مدارس مستقلة ومنفصلة عن المعبد .

اما كيف كان شكل هذه المدارس ، فان التنقيبات التي قامت حتى الان تدل على ان بناء تلك المدارس لم يكن يختلف كثيرا عن بناء المساكن العادية . ولولا اللوائح الطينية واثار الادوات الكتابية التي عثر عليها في بعض الغرف لما امكن تمييزها عن باقي

---

١. Ibid.

المساكن . وقد عثر على احدى هذه الغرف المدرسية في كل من (نفر) و (سيبار) و (اور) . وفي عام ١٩٣٤ عثر المنقبون الفرنسيون في مدينة (ماري) على غرفتين تشير كل الدلائل على انهما كانتا تستعملان للتعليم ، اذ كانتا تحتويان على صفوف من المقاعد المصنوعة من الطين المشوى تتسع لشخص او اثنين او اربعة .[1] (انظر الصورة غرفة مدرسية)

ويذكر السير ليونارد وولي " انه عثر خلال تنقيباته في منزل (اجمل سين) في مدينة اور على ما يقرب من الفي لوحة مدرسية . وكان اجمل سين رئيس مدرسة للصبيان وقد خطط منزله بشكل يسمح بالقيام بغروض التعليم . كانت الصفوف تعقد في باحة المنزل وفي غرفة الضيوف ، بينما كانت الغرف الباقية تستعمل للاعمال البيتية . مئات من اللوحات التي عثر عليها في منزل اجمل سن كانت لوحات مدرسية للتمارين الكتابية . وكان بين هذه اللوحات لوحات دينية كثيرة المرجح انها كانت تستعمل كنسخ اصلية ينقل عنها التلاميذ تمارينهم او يستظهرونها . وقد عثر كذلك على لوحات تاريخية تذكر بعض الوقائع والاعمال التاريخية كما عثر على جداول حسابية كجداول الضرب وسواها .[2]

مع تطور الايام اصبح للمدرسة فيما بين النهرين مخطط واضح لا يختلف كثيرا عن مخططات المدارس الحديثة . والمخطط الذى يظهر الى جانب هذا الكلام يرجع الى عهد حمورابي . وقد عثر عليه الفرنسيون عام ١٨٩٤ . وبالرغم من ان هذا العهد يقع خارج النطاق التاريخي لهذا البحث ، فلا شك ان تقديم هذا

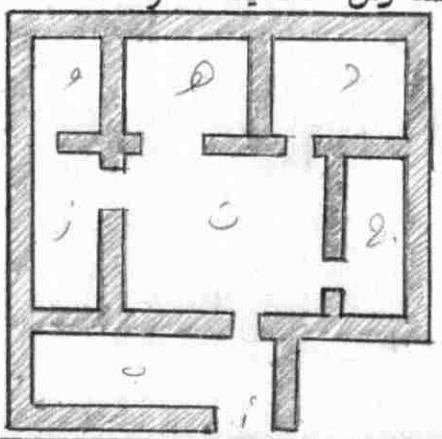

---

١. Ibid.,

٢. Wooley, Excavations at Ur, p. 185.

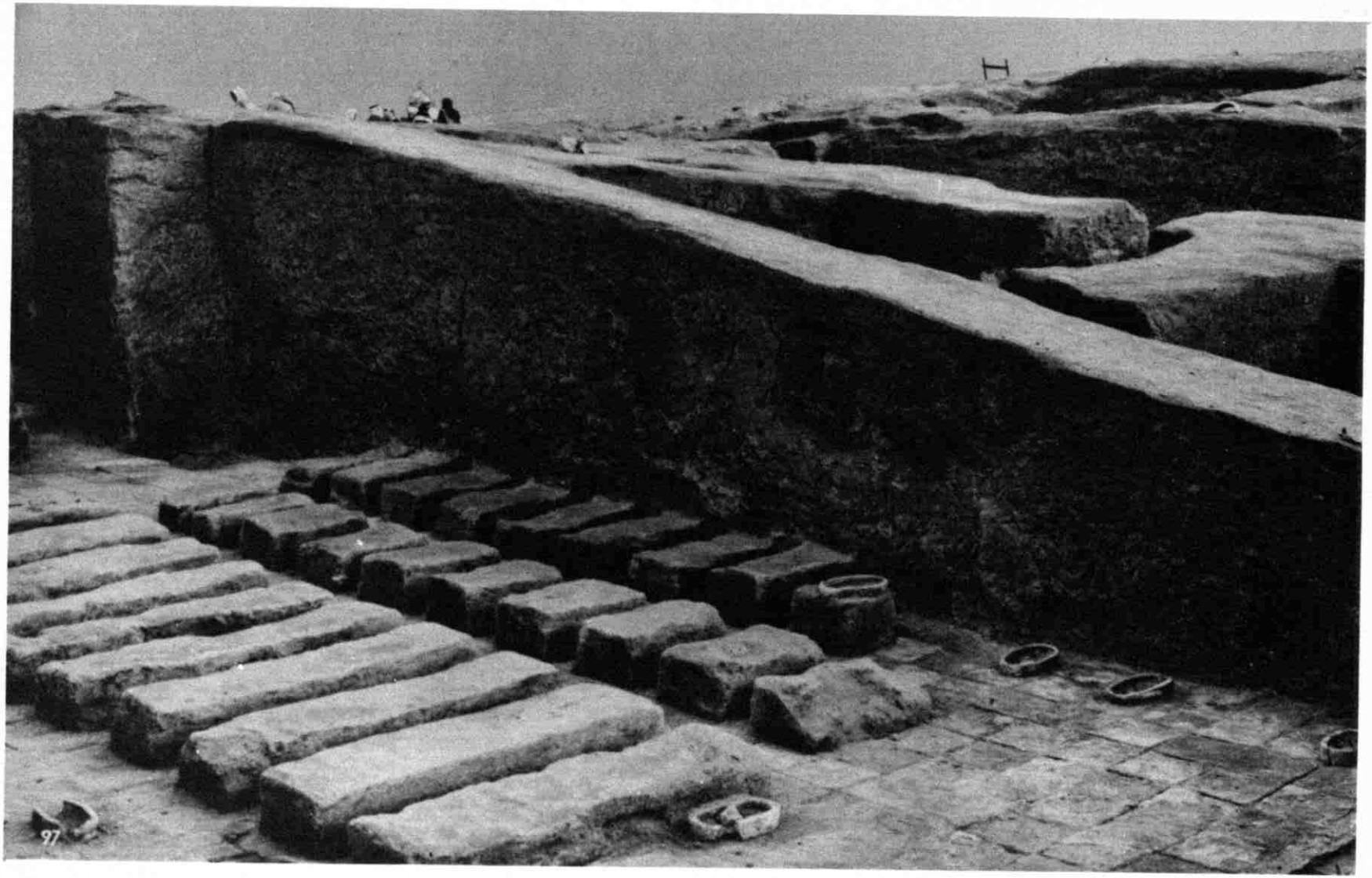

غرفة مدرسية عثر عليها في مدينة "مارى" في اعالي نهر الفرات على الحدود السورية ـ العراقية
العالم الاثرى الفرنسي اندره بارو وترجع الى النصف الاول من الالف الثالث ق.م.
(لاحظ مقاعد الدراسة ومعاجين الطين الذى كان يستعمل للكتابة)

المخطط يعطي فكرة ولو تقريبية عن شكل المدرسة في العصور البابلية الاولى المتاخمة للعصور السومرية - الاكادية الاخيرة . كان التلاميذ يدخلون من الباب (أ) الى القاعة الطويلة (ب) حيث كان البواب يجلس ، ومن المحتمل انه كان يحتفظ بلائحة من اسماء التلاميذ ليسجل المتغيبين منهم والمتأخرين عنا لحضور . من القاعة (ب) يدخل التلاميذ الى القاعة (ت) التي كانت تترك بدون سقف (اى فسحة سماوية) وبالامكان التقدير ان التلاميذ كانوا يفترقون هنا ، الصبيان والبنات الكبار يذهبون الى غرفهم الخاصة والصغار يذهبون الى غرف اخرى. من المرجح ايضا انه في هذه القاعة (ت) كانت توجد كومة او صندوق من الطين يصنع منه التلاميذ لوحاتهم التي يستعملونها للكتابة .[١]

يظهر ان المدارس لم تكن عمومية تحت اشراف الحكومة او الدولة ، بل كانت مدارس خصوصية يفتتحها كهنة او كتبة يتخذون التعليم موردا للرزق . ولهذا لم يكن من الضروري خاصة في العهود السومرية الاولى ان تستقل المدرسة عن بيت المعلم بل كانت في احيان كثيرة تحتل قسما من البيت .

اهداف المدرس السومرية : مر قبلا ان المدرسة السومرية نشأت نتيجة لاختراع الكتابة الاسفينية . ولهذا يكون من الطبيعي ان يكون الهدف الرئيسي للمدرسة السومرية الاهتمام بتدريس الكتابة وتدريب الكتبة لتأمين حاجة البلاد الاقتصادية والادارية من الكتبة ، خاصة حاجة المعابد والقصور . لقد ظل هذا الهدف الرئيسي ملازما للمدرسة السومرية طوال تاريخها . ولكنها مع تطورها ونموها وخاصة نتيجة لاتساع المنهاج وتنوع مواضيع التعليم اصبحت المدرسة السومرية مركزا للثقافة والعلم . فضمن جدرانها ترعرع العالم - البحاثة ، وضمن جدرانها كان الطلاب يدرسون

---

١. Breasted, Op. Cit., p. 175.

كل ما عرف من علوم في ايامهم - من دين ،وعلم نبات وحيوان ، وتعدين ،وجغرافيا ، ورياضيات،ولغويات ، وفي بعض الاحيان كان يضاف الى هذه العلوم وتكتب قطع جديدة ضمن جدران هذه المدارس . مع صحة القول ان اغلبية خريجي المدارس السومرية كانوا يصبحون كتبة في خدمة المعابد او القصور ،كان بعض منهم يقف حياته على التعليم والبحث وطلب المعرفة . وكان عدد كبير من اولئك العلماء يقومون بالبحوث والتنقيبات ويكتبون اللوائح الكثيرة . وهكذا تحولت المدرسة السومرية من ملحق بالمعبد الى مؤسسة مدنية خاصة ذات اهداف عامة ،كما اخذ منهاجها يتطور تدريجيا وفق حاجات المجتمع .[١]

من هنا نستخلص ان نشوء المدرسة في سومر جاء نتيجة لحاجة المجتمع اليها . اى انها كانت وسيلة اتخذها السومريون لتسهيل اعمالهم وتحسين اوضاع حياتهم . لقد كان السومريون رجال اعمال من الدرجة الاولى ،وكان طبيعيا ان يتميز تفكيرهم بالواقعية والعملية ،وان تتكيف اهداف المدرسة السومرية وفق هذا التفكير. " لم يهتم الكتبة السومريون بصفات الاعداد بحد ذاتها ولا بقياس المسافات الفارغة المجردة (وغالبا لم يكن باستطاعتهم ادراك شيء من هذا) حتى ولا بقياس بادية غير قابلة للزراعة او مساحة غير محصورة . ولكنهم احتاجوا فعلا الى معرفة كمية البذار التي يجب ان توضع جانبا لزرع حقول الاله وعدد الاجر الذى يجب تأمينه لبناء حائط معبد ،وكمية التراب التي يجب ان تحفر لاجل زقورة او سد وعدد الرجال الذى يقتضيه انهاء العمل في الوقت المحدد . "[٢]

---

١. Kramer, From the Tablets of Sumer, p. 5.

٢. Childe, What Happened in History, p. 109.

من هنا يمكن الاستنتاج ان الهدف الاخير للمدرسة السومرية لم يكن تحميل رؤوس التلاميذ بمعلومات كثيرة ، ولا التلهي بتعليم امور لا تخدم حاجات المجتمع بل كان الهدف تدريب الاولاد على استعمال ما يتلقونه من معرفة ووضعها موضع التنفيذ ، اى ان الهدف الاخلاقي الكامن وراء هذه العقلية العملية كان يؤكد على تخريج رجال الى المجتمع لا تخريج مجرد اشخاص يحملون معارف نظرية لا يطبقونها .

ان اللوائح المدرسية التي عثر عليها لاتساعد كثيرا في ابراز الرابط بين الفلسفة التي آمن بها السومريون وبين اهداف التربية المدرسية . على انه ليس بالامر الصعب على الباحث المدقق ان يصل في استنتاجه الى ان ايمان السومريين بان الغاية الاخيرة من خلق الانسان هي خدمة الالهة ، لا بد كان يؤثر جوهريا في اهداف التربية وطرائقها . ولهذا يمكننا التقدير انه في اساس مختلف العلوم التي كانت تدرس في سومر ، خاصة منها ما يتعلق بالعلوم الدينية ، كان هذا الايمان هو القاعدة العامة التي توجه اهداف التعليم وطرائقه . لقد اتخذت الحضارة السومرية كلها طابع الخدمة للآلهة ، وهذا ما يفسر بروز المعبد كالقلب في المجتمع السومري ، اذ كان هو قوته الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية الموجهة لمختلف مناحي النشاط الانساني . فليس غريبا ، والحالة هذه ، ان تجسد المدرسة السومرية اهداف المجتمع السومري ، وان تجعل من نفسها المصنع الذي يعد الطلاب الى مختلف الحاجات التي يتطلبها المجتمع ، في سبيل تأمين الهدف الاخير من وجود الانسان - خدمة الالهة . من هنا يمكن فيهم سبب تأكيد المدرسة السومرية على تعليم الكتابة للطلاب باعتبار ان حاجة المجتمع ، وخاصة المعبد ، للكتابة ، كانت حاجة ضرورية . وكذلك هي الحال بالنسبة لتعليم العلوم الاخرى كالرياضيات والهندسة وسواها ، فكلها كالكتابة كانت تهدف لتسهيل اعمال المجتمع وتحسين اوضاعه بحيث يتمكن الانسان من القيام بواجبه الرئيسي تجاه الالهة ، وتجاه ممثليهم على الارض - الكهنة .

ان حاجة المجتمع كانت الى العمل - الخدمة ، وليست الى المعرفة المجردة . وكان لا بد من ان تنسجم المدرسة السومرية مع هذه الحاجة .

الى جانب هذا بالامكان استنتاج خاصة اخرى لا بد انها كانت تميز الاهداف التربوية في سومر هذه الخاصة هي بروز العنصر الاخلاقي في التربية . فمجتمع كالمجتمع السومري يتحلى بالصفات الاخلاقية العالية كمحبة لعمل الخير والبناء والعدالة والاستقامة من غير المعقول ان يتوانى عن غرس هذه الصفات في نفوس التلاميذ خاصة في العلوم الدينية والادبية .

منهاج المدرسة السومرية : ما هي النشاطات والدروس التي كانت موضع اهتمام المدارس في سومر ؟

ان اللوائح المدرسية الكثيرة الموجودة في مختلف متاحف العالم تكفي لتزويد الباحث بمعلومات وافية عن مناهج التعليم في سومر . تحمل بعض هذه اللوائح جداول طويلة من العلامات الكتابية تقابلها قيم صوتية لكل علامة بقصد استظهارها . وتحمل بعض اللوائح الاخرى جداول من العلامات مجمعة بطريقة هجائية واشارات رمزية توضع قبل الكلمة فتعطيها معنى جديدا . فمثلا اشارة ايلو (Ilu) تعطي القارئ علما ان مجموعة الكلمات التي تلي هي اسم اله ، وماتو (Matu) هي اسم شعب . والاشارة الرمزية التي تعني خشب قد تتقدم مجموعة الكلمات التي تعني " صندوق " او " شجرة " .

بعد تدريب التلميذ على هذه المعارف الاساسية ينتقل الى الصرف والنحو . وقد عثر على لوائح تحمل جداول باوزان الافعال وتصريفها . وحين يصل التلميذ الى هذه المرحلة يكون قد اختتم فن الكتابة واصبح قادرا على الكتابة بدون ارشاد

المعلم . كان المعلم يكتب قطعة نموذجية على وجه الرقيم الطيني ، فيأخذه التلميذ ويدرس القطعة ، ثم يقلب الوجه ويحاول ان ينسخ على الوجه الثاني قطعة المعلم .[١]

في الربع الاخير من الالف الثالث ق.م . عندما تم للاكاديين اخضاع اسلافهم السومريين عمد المعلمون الى اعداد اولى المعاجم في تاريخ الانسان . فالاكاديون لم يقتبسوا الكتابة المسمارية وحسب بل اقتبسوا القطع الادبية الكثيرة التي كتبها السومريون ودرسوها وقلدوها في وقت لم يكن قد بقي للغة السومرية من اثر على السن الناس . لهذا انشطت حركة التعليم والترجمة ووضعت المعاجم لتفسير الكلمات السومرية بما يقابلها من كلمات اكادية .[٢]

وقد شهدت فترة حكم السلالة الثالثة في اور (٢٤٠٨ - ٢٢٨٢ ق.م .) حركة ناشطة لتجميع ووضع لوائح قاموسية ، كما نشطت حركة جمع المعارف الهامة بشكل كتابي ، وقد اصبحت هذه المعارف مواد " الكتب المدرسية " ، واهم هذه الكتب اثنان هما (HAR.RA = hubullu) و (Ana ittisu) ، ويحتويان على تفاسير لكلمات وعبارات اكثرها قانونية .[٣]

من هذه اللوائح الكثيرة المتنوعة بين علوم لغوية وقطع ادبية وقوانين وجداول حسابية ومسائل هندسية وكتابات نباتية وحيوانية ، يمكن للباحث ان يقسم منهاج التعليم في سومر الى شقين : الشق الاول يمكن تسميته ، بالمنهاج العلمي

---

١. Woolley, The Sumerians, p. 110.

٢. Kramer, From the Tablets of Sumer, p. 7.

٣. Driver, Op. Cit., p. 67.

او شبه العلمي ،والشق الثاني ، المنهاج الادبي ٠

فيما يتعلق بالمنهاج العلمي يجب التأكيد على ان المواضيع التي تقع تحت هذا التصنيف لم تنبثق من دافع او محرض علمي - اى من دافع للبحث عن الحقيقة من اجل الحقيقة ٠ بل انها انبثقت من الهدف الرئيسي للمدرسة السومرية ، وهو تعليم التلاميذ كتابة اللغة السومرية ٠ لهذا استنبط المعلمون السومريون طريقة في التعليم تتألف من تصنيفات لغوية - اى انهم صنفوا اللغة الى مجموعات من الكلمات المتشابهة ، وكان على التلميذ ان يستظهرها وينسخها ، حتى يبلغ المهارة التامة في الكتابة ٠ وقد بلغت هذه "الكتب المدرسية" في الالف الثالث ق٠م ٠ درجة من الكمال حتى انها انتشرت في جميع المدارس السومرية واصبحت تدرس وتستعمل في الصفوف كما تدرس وتستعمل الكتب المدرسية اليوم ٠ في هذه "الكتب" توجد جداول طويلة من اسماء الاشجار والحيوانات المختلفة ،بما فيها الحشرات ، والطيور ، واسماء البلدان والمدن والقرى ، والحجارة ،والمعادن ٠ وهذا دليل على معرفة واسعة لما يسمى اليوم بعلم النبات والحيوان ، وعلم الجغرافيا والتعدين[١]

احدى الفروع الرئيسية التي تقع تحت "المنهاج العلمي" ، الجبر والرياضيات٠ وقد برع السومريون في هذا الحقل لدرجة فائقة ٠ في البدء كان ترقيمهم يتميز بالطريقة الستينية ، (Sexagesimal System) والترقيم الستيني هو ضرب الرقم بعشرة وستة بالتناوب : ١ ، ١٠ ، ٦٠ ، ٦٠٠ ، ٣٦٠٠ رغم مساوي، هذا النظام الترقيمي الا انه يمتاز بدرجة مدهشة من التجريد الحسابي ٠ لقد شملت اللوائح السومرية الاولى مختلف انواع الجداول الحسابية : جداول جمع وضرب وجداول استخراج المربعات

---

١٠ Kramer, From the Tablets of Sumer, p. 6.

والمكعبات التي يمكن بقلبها واستخراج الجذور التربيعية والتكعيبية . مثال على ذلك :

مربع ال ١ = ١

مربع ال ٢ = ٤

مربع ال ٣ = ٩

مربع ال ٨ = ١ ، ٤ (اى ٦٠ + ٤)

مربع ال ٦٠ = ٦٠ (اى $٦٠^{٢}$)

مربع ال ٥٩ = ١ ، ٥٨ (اى ٥٨ × ٦٠) + ١

ولكن كيف تمكن السومريون من حل مشكلة الكسور ؟ هنا تظهر عبقرية السومريين الرياضية مجددا . اذ انهم استعاضوا عن استعمال الكسور باستعمال معكوسات الاعداد (Reciprocals) ، اى انهم استعملوا الضرب بدل القسمة . فثلث الستين مثلا يساوى عشرين ، او حسب طريقتهم ، معكوس العدد ٣ يساوى عشرين . اذ ان الضرب بعشرين يساوى تماما القسمة على ثلاثة (باعتبار ان العشرين تساوى ثلث الستين) . وهذه الطريقة ، على الارجح ، نشأت من النظام الستيني الذى اتبعوه ، لما يمتاز به هذا النظام من كثرة المشتقات (Factors) ـ (٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٣٠) الامر الذى يسهل كثيرا استعمال معكوسات الاعداد . ومن المحتمل انهم اختاروا رقم الستين اساسا لحسابهم لما يمتاز به من قابلية التحليل الى عوامل او مشتقات كثيرة . فهم اذا ارادوا اخذ مربع ال ١٢ مثلا يأخذون اولا معكوس العدد ١٢ وهو خمسة (باعتبار ان $\frac{٦٠}{١٢}$ = ٥) ثم يربعون خمسة = ٢٥ . ويأخذون معكوس العدد ٢٥ ويساوى ٢٤ر٢ (اذان $\frac{٦٠}{٢٥}$ = $\frac{٤}{١٠}$ ٢ . وال $\frac{٤}{١٠}$ = $\frac{٢٤}{٦٠}$) والرقم ٢٤ ر ٢ يعني (٢ × ٦٠) + ٢٤ = ١٤٤ ، وهو

مربع ال ١٢ . الجواب صحيح ، ولكنه كما يظهر معقد وطويل . وهذا دليل على مقدرة رياضية مدهشة وقوة تحليلية وتجريدية عالية ، لدرجة انهم احيانا كانوا يؤخذون بتجريداتهم ويتغاضون عن الطرائق الابسط .[١]

ومن المسائل الحسابية الشيقة ما جاء على رقيم محفوظ في متحف اللوفر حاليا ، ويعود الى حوالي ٢٠٠٠ ق.م . تطلب المسألة ايجاد كم من الوقت يستغرق مقدار معين من المال لكي يضاعف نفسه في فائدة مركبة مقدارها ٢٠ بالمئة . وقد تمكن السومريون من ايجاد الجواب الصحيح وهو $٣\frac{٤}{٥}$. ان توصل السومريين الى حل معادلة رياضية من هذا النوع ، منذ حوالي اربعة الاف سنة ، لامر يدعو الى الاعجاب والتقدير . غير ان الاعجاب والتقدير يزدادان اكثر عندما نعرف انهم تمكنوا من حل المعادلات الجبرية ذات المجهولين (اى من الدرجة الثانية) والمعادلات الجبرية المكعبة (اى المرفوعة الى القوة الثالثة) ، كما كانوا على معرفة بالارقام السلبية . قد تظهر هذه الامور اشياء بسيطة للرياضي في العصر الحاضر ، ولكن عندما نعرف ان فكرة الرقم السلبي لم تدخل الى العلوم الغربية الا في ايام الرياضي الايطالي ليوناردو اوف بيزا ، في النصف الاول من القرن الثالث عشر ب.م . ، وان تطور هذه الفكرة وترسيخها في الاذهان استغرق قرونا طويلة بعد ذلك ، يمكننا ان نقدر عبقرية السومريين الرياضية . ان ما بلغه سكان ما بين النهرين منذ اربعة آلاف سنة في الجبر يكفي لان يبهر رياضي العصر الحاضر . ان العالم اللغوى العادى لا يمكنه مطلقا ان يفهم الرياضيات السومرية ، ولكنه مع هذا يردد بخضوع ، انه لا توجد علوم رياضية حقيقية قبل عهد اليونان . من البديهي لنا الان ان السومريين كانوا يمتازون

---

١. Sarton, George, Op. Cit., pp. 69-71.

بعبقرية رياضية في حقل الجبر كما امتاز خلفاؤهم اليونان في حقل الهندسة .[١]

تتلخص المآثر التي تركها السومريون وخلفاؤهم البابليون في حقل الرياضيات بثلاث نقاط رئيسية :

(١) قيمة المرتبة العددية (Place Value) في الترقيم . لم تكن هذه القيمة تامة الوضوح بسبب عدم معرفتهم للصفر (والصفر عرف لاول مرة في ايام السلوقيين) . لقد ضاعت هذه المعرفة حتى تسنى لها الظهور مجددا في الارقام الهند ـ عربية .

(٢) تمديد مقياس الارقام الى مكررات الاعداد او مشتقاتها (Multiples & Submultiples) . وكذلك ضاعت معرفة هذه القيمة الى ان ظهرت مجددا في عام ١٥٨٥ بم . عند اختراع النظام العشري .

(٣) استعمال القاعدة العددية ذاتها في الترقيم وعلم الموازين . وهذه المعرفة ضاعت ايضا الى ان ظهرت عام ١٧٩٥ بم . عند اختراع النظام المتري في القياسات.[٢]

لعل هذه المآثر الثلاث كانت من الصعوبة لدرجة ان الاجيال التي تلت السومريين والبابليين لم تستطع استيعابها ، فبقيت مجهولة عبر آلاف السنين حتى اقتضى لها الظهور مجددا في العصور الحديثة .

ان مرورنا بهذا التفصيل على العلوم الرياضية التي اشتهر بها السومريون ان هو الا من قبيل اعطاء فكرة عما كان يحتويه منهاج المدرسة السومرية في شقه

---

١. Sarton, Op. Cit., p. 73.

٢. Sarton, Op. Cit., p. 74.

العلمي . من المعقول كثيرا ان مثل هذه العلوم لم تكن مقررة كمواد يفترض بالطلاب دراستها واتقانها كشرط لتخرجهم ، الا انها كمآثر علمية لا بد كانت تشغل حيزا في النشاطات التعليمية التي تجرى داخل جدران المدارس السومرية ، ولهذا يمكننا اعتبارها جزءا من المنهاج المدرسي .

واما الشق الادبي من المنهاج فكان يتألف على الغالب من دراسة المؤلفات الادبية الكثيرة ونسخها وتقليدها وحفظها وكانت هذه المؤلفات قد وضعت وانتشرت بين الناس في النصف الاخير من الالف الثالث ق.م . بشكل قصص شعرية يتراوح طولها بين اقل من خمسين خطا وبين الالف . والقصص التي وردتنا من تلك العصور تتألف من اساطير وملاحم تمجد اعمال الالهة والابطال السومريين ، واناشيد موجهة للآلهة والابطال ، ورثائيات يندب فيها الشعراء تدمير المدن السومرية ، و مؤلفات حكمية تحتوى على الامثال والحكايات والمقالات ، من هذه اللوحات الادبية التي تحصى بالالاف تمكن علماء الاثار ان يتحققوا من ان الكثير منها ، وفي الواقع معظمها كتب بايدى طلاب المدارس انفسهم .[1]

لقد كان منهاج المدرسة السومرية منسجما مع اهدافها . كان المنهاج يشمل الكتابة والرياضيات والهندسة والتعدين والسحر والطب والفلك والاداب والدين وكل ما من شأنه ان يخرج الى المجتمع حاجته من كتبة ومهندسين واداريين واطباء ومزارعين ومعدنين وصناع ويحسن في اوضاع المجتمع وفي المعارف التي بحوزته .

طرائق التعليم : ما تحتويه ~~الارقام~~ الرقم السومرية عن طرائق التعليم يعتبر

---

[1] Kramer, From the Tablets of Sumer, p. 7.

شيئا قليلا . الا ان هناك بعض الاشارات التي يمكن منها استخلاص آراء عامة حول هذه الطرائق .

في الصباح كان التلميذ يراجع اللوحة التي كتبها في اليوم السابق . ثم يأتي "المعلم المساعد" ويعد له لوحة جديدة على التلميذ ان ينسخها ثم يقدمها للمعلم ليدرسها ويرى مقدار صحتها . وكان الحفظ يلعب دورا كبيرا في اعمال التدريس اذ كان المعلمون كثيرا ما يلقون محاضرات شفوية حول بعض العلوم ، وكان على التلاميذ ان يتمتعوا بذاكرة قوية كي يحفظوا محاضرة المعلم التي يلقيها شفويا ، لعدم مقدرتهم على تسجيلها كتابيا . اما عن طريقة التسميع فكانت تجرى بطريقة السؤال والجواب . المعلم يسأل والتلميذ يجيب . ومهارة التلميذ في الاجابة تتوقف الى حد بعيد على مقدار ما يتمتع به من قوة الذاكرة . واذا ما فشل التلميذ في حفظ درسه او في عدم كتابة وظيفته بالطريقة الصحيحة ، واذا ما ارتكب مخالفة ما ، فانه كان يتلقى جزاءه ضربا بالعصا التي كانت حاجة ضرورية لحفظ النظام داخل جدران المدرسة .

اهم مصادر هذه المعلومات المتعلقة بطرائق التدريس مرجعها مقالة كتبها احد المعلمين يسجل فيها اعمال يوم مدرسي . وترجع هذه المقالة الى حوالي ٢٠٠٠ ق.م . تبدأ القطعة بسؤال التلميذ : "ايها التلميذ اين ذهبت منذ الايام الاولى ؟" فيجيب التلميذ : "ذهبت الى المدرسة" . فيسأله المعلم "ماذا فعلت في المدرسة ؟" وبعد هذا يلي جواب يستغرق اكثر من نصف المقالة يصف به التلميذ اعمال يومه . وقد جاء هذا الوصف كما يلي :

"تلوت رقيمي ، وتناولت طعامي ، ثم اعددت رقيمي الجديد ، كتبته ، انهيته ، وبعد ذاك عينوا لي درسي الشفهي ، وبعد الظهر عينوا لي درسي الكتابي . عند

انتهاء النهار ذهبت الى البيت. دخلت البيت فوجدت ابي جالسا هناك. اخبرته عن درسي الكتابي ،ثم تلوته له ،فسر ابي ... عندما استيقظت في صباح اليوم التالي اسرعت الى امي وقلت لها : " اعطني طعامي ،اريد ان اذهب الى المدرسة ". اعطتني امي " لغافتين " فانطلقت. اعطتني امي لغافتين قذهبت الى المدرسة . وهناك سألني وكيل المعلم " لماذا تأخرت ؟ " وبخوف وقلب مرتجف دخلت امام معلمي ،واحنيت رأسي باحترام . "[1]

ولكن رغم تقديمه التحية باحترام ،يظهر ان ذلك اليوم كان يوم شؤم على التلميذ . اذ انه نال عدة ضربات بالعصا من مختلف معلمي المدرسة لخرقه النظام بالتكلم في الصف والوقوف ، والهرب من المدرسة . والاسوأ من هذا كله ان معلمه قال له : " ان كتابتك غير مرضية " وبعد هذا ضربه بالعصا . يظهر ان ما ناله هذا التلميذ في ذلك اليوم كان كثيرا عليه ، فاقترح على والده ان يدعو معلم المدرسة الى البيت ويسترضيه ببعض الهدايا . وتكمل اللوحة قائلة ، " واستمع الاب الى ابنه ،فدعا المعلم الى البيت واجلسه في مقعد الشرف. ووقف التلميذ يخدم ضيفه ، ثم تلى لوالده بحضور المعلم كلما كان قد تعلمه من فنون الكتابة". بعد هذا قدم الوالد الخمر للمعلم ، "والبسه ثوبا جديدا ، وقدم له هدية ،ووضع اكليلا على رأسه . " واحس المعلم بفضل صاحب البيت فخاطب التلميذ بابيات شعرية ،بعضها ، "ايها الشاب ، لانك لم تهمل كلامي ،لانك لم تنبذه فلتصل الى اعلى مرتبة في فن الكتابة ولتحصل على هذه المهنة بتمامها . ولتكن بين اخوتك اعلاهم شأنا ، وبين اترابك لتكن رئيسا . ولتكن اعلى زملائك في الصف. لقد قمت

---

١. Ibid.,

بواجباتك المدرسية خير قيام . لقد اصبحت رجل علم . "[١] وبهذه الكلمات تنتهي هذه القطعة الممتعة .

بالامكان استخلاص نقاط متعددة من هذه القطعة تتعلق بطريقة التدريس آنذاك :

اولا : ان المعلمين كانوا يعطون وظائف مدرسية للتلاميذ .

ثانيا : ان تلك الوظائف كانت على نوعين ، كتابي وشفهي .

ثالثا : ان هناك دواما محددا لاوقات التدريس . وان تأخر التلميذ او غيابه عن الصف امر يعاقب عليه .

رابعا : ان الكلام او الوقوف في الصف او الهرب من المدرسة امور تعتبر مخلة بالنظام يعاقب عليها التلميذ .

خامسا : ان عدم نجاح التلميذ في تحضير وظيفته او كتابة رقيمه بالطريقة الصحيحة امر يعاقب عليه .

سادسا : ان طريقة العقاب كانت العصا .

هذه الطريقة الاوتوقراطية في التعليم لم تكن نشازا في حضارة تتصف بتركيب متدرج في مختلف مؤسساتها . في الدولة الكونية تمثل السومريون ان السلطة التي تدير الكون مكونة من مجمع عام له رئيس اعلى هو آن ، ويليه مسؤول ثان هو انليل ثم ثالث هو انكي او نينهرساج . وفي الدولة البشرية ، كان الكاهن في العصور

---

١. Ibid.,

المتأخرة ، هو رأس الدولة ، ويليه كهان او مسؤولون آخرون في السلطة وكذلك في المدرسة ، حيث يمثل " أب المدرسة " السلطة العليا ، ويليه "الاخ الاكبر" او الاستاذ المساعد ، ويعتبر التلاميذ " ابناء المدرسة " . من هنا يتضح ان تأكيد المدرسة السومرية على الطريقة الاوتوقراطية في التعليم ، لم يكن الا من قبيل الانسجام مع ايمان السومريين بتدرج السلطات من الاعلى الى الاسفل ، هذا التدرج الذى يحتم اطاعة المرؤوسين لرؤسائهم كشرط اساسي لقيام اية مؤسسة بعملها بانتظام . والجدير بالتنويه ان تأكيد الطاعة والطريقة الاوتوقراطية في التعليم لا تزال سائدة في معظم مدارس الشرق الاوسط الى اليوم .

ادارة المدرسة السومرية : يدعى رئيس المدرسة السومرية باوميا (Ummia) او "الاستاذ الخبير" او "اب المدرسة" في حين كان التلميذ يدعى "ابن المدرسة" . وكان الاستاذ المساعد يدعى " الاخ الاكبر " ، وبعض واجباته ان يكتب لوائح جديدة للتلاميذ لينسخوها ، وان يمتحن ويصلح كتاباتهم ، وان يستمع اليهم يلقون ما حفظوه عن ظهر قلب . وكان جهاز الادارة يشمل اشخاصا اخر منهم المسؤول عن الرسم ، " والمسؤول عن اللغة السومرية ." وكان هنالك مرشدون او نظار مسؤولون عن اخذ التغقد ، كما كان هنالك شخص يدعى "المسؤول عن السوط " ، وهو المسؤول عن حفظ النظام . واما عن مرتبات المعلمين فالمرجح انهم كانوا يتسلمونها من "اب المدرسة " الذى يقوم بجمع الاقساط من التلاميذ .[1]

ان تسمية رئيس المدرسة " بالاب" والتلميذ "بالابن" والاستاذ المساعد " بالاخ الاكبر " يدل على ان شيئا من الروح العائلية كان موجودا بين اعضاء المدرسة

---

١. Ibid.

معلمين وتلاميذ . وقد يكون مرد هذه التسمية الى منشأ المدرسة داخل المعبد واستخدامها التعابير الدينية . على انه مهما يكن السبب ، فان التمعن بهذه التسمية ومقابلتها بالنظام الاداري في مدارسنا الحاضرة ذو متعة خاصة .

الانتساب الى المدرسة في سومر: يظهر من اللوائح المدرسية ان التعليم لم يكن الزاميا ولا مجانيا ولا عاما . اذ ان معظم التلاميذ كانوا من ابناء الاغنياء . واما اولاد الفقراء فلم يكن باستطاعتهم تأمين المال ولا الوقت الكافي لدخول المدارس .

مما يثبت صحة هذا الاستنتاج اكتشاف قام به عالم الماني يدعى " نقولا شنايدر " عام ١٩٤٦ ، حين قام باحصاء العائلات التي يتحدر منها الكتبة السومريون . فوجد ان حوالي ٥٠٠ شخص في آلاف اللوحات الاقتصادية والادارية التي ترجع الى حوالي ٢٠٠٠ ق.م. يذكرون القابهم ككتبة . ومعظم هؤلاء يضيف في سبيل التعريف عن نفسه ، اسم ابيه ومهنته . والنتيجة التي توصل اليها العالم الالماني ان آباء الكتبة ، الذين هم خريجو المدارس ، كانوا في معظم الاحيان اما حكاما ، او سفراء او مدراء للمعابد ، او ضباط جيش او ضباط بحرية ، او موظفين في شؤون المال ، او كهنة ، او مدراء او مفتشين ، او كتبة او محاسبين . وباختصار ان جميع هؤلاء الكتبة يتحدرون من العائلات الغنية في المجتمع .[١]

تعليم البنات : يذكر شنايدر انه لم يعثر في اللوائح التي درسها على اسم اية امرأة مسجلة ككاتبة ، ويستنتج على ان التلاميذ كانوا جميعهم ذكورا .[٢] غير ان

---

١. Ibid.,

٢. Ibid., p. 5.

بعض المؤرخين [١] يقدمون ادلة على وجود بعض الكتبة من النساء ، ويؤكدون على انهن كن يتلقين العلم كالذكور . ويستشهدون بالعقود والمعاملات الكثيرة التي ترجع الى العهد البابلي القديم المتأخم لاواخر العهد الاكادى ، حيث تظهر النساء كشهود في الدعاوى او كمدعين ، وكشركاء ، في الاعمال التجارية . وان امضاواتهن كانت تظهر احيانا في العقود مما يدل على معرفتهن للكتابة . ومن المرجح ان معرفة النساء للكتابة في العهد البابلي القديم لم تأت كبدعة جديدة ، بل اغلب الظن انها كانت استمرارا لتقاليد عرفت في الازمان السابقة .

هكذا كانت حال التربية في سومر - فلسفة واهدافا ومناهج واساليب . لا بد ان شيئا من الاعجاب المشوب ببعض التساؤل يداخل ذهن الباحث المدقق في طبيعة التربية وحالتها والزمن الحاضر . اى جديد في النظم التربوية المتبعة اليوم في الشرق الاوسط عن تلك التي اتبعت منذ اكثر من اربعة آلاف سنة في سومر ؟ اى ، اذا جردنا العوامل الحضارية المضافة الى الحضارة البشرية بفضل التطور التاريخي خلال هذه الفترة الطويلة من الزمن ، هل يمكننا ان نميز ، جوهريا ، بين التربية السائدة اليوم في العراق ، وبين التربية التي كانت سائدة منذ حوالي اربعة او خمسة آلاف سنة ، في تلك البقعة ذاتها من العراق ، في سومر ؟

---

١. Driver, Godfrey Rolles, Op. Cit., p. 64.
Durant, Op. Cit., p. 141.
Sayce, Op. Cit., p. 42.

كلمـــــة اخيـــرة فـــي الموضـــوع

كلمة اخيرة في الموضوع

هذه هي سومر – تاريخيا وحضارة ، وهذه هي التربية كما عرفت في سومر ، فلسفة ومناهج وطرائق . لا بد ان شيئا من التساؤل الملح يعتلج في صدر القارئ المسؤول بعد اطلاعه على مآثر هذه الحضارة . ترى اين ضاعت هذه المآثر؟ وما سبب توقفها عن الفعل في حاضرنا ؟ او على الاقل ، ما سبب تغافلنا عن اثرها في حاضرنا ؟ وكيف ان البلاد التي ساهمت في وضع الاسس الاولى للحضارة البشرية ، هي اليوم متخلفة عن بلدان العالم الراقية التي ارتفعت على هذه الاسس ذاتها؟

قد يكون من المستحسن ، في هذه الكلمة الاخيرة ، ان يبقى في ذهن القارئ بعض ما يقوله المؤرخون في سومر ، وفي قيمة ما تمثله الحضارة التي نشأت هناك بالنسبة للحضارة البشرية . يقول العالم المؤرخ جورج سارتون ، "انه يجب ان نتمثل الحضارة السومرية كقوة روحية هائلة استمرت في الاشعاع ما يقرب من الثلاثة او الاربعة الاف سنة . لقد وصل اشعاعها الى سوريا ومصر ، و شرق المتوسط ، والاناضول وارمينيا وبلاد الفرس ، وحتى الهند والصين . "[1]

ويقول المؤرخ "ول د يورانت" "هنا في سومر نشأت اولى انظمة الحكم ، اولى انظمة الري ، اولى الشرائع ، اول استعمال للفضة والذهب كنقد ، اول معاملات تجارية ، اول نظام للدين ، اول محاولة للتعبير عن الافكار بالكتابة ، اول قصص عن الخلق والطوفان ، اول شعر وآداب ، اول مكاتب ومدارس ، اول مجوهرات وحلى ، اول مساجد

---

١. Sarton, George, A History of Science, p. 98.

وقصور ، اول عقد في البناء . هنا في سومر ضرب الوتر الذى نسج التاريخ على منواله آلاف الانغام ."[1]

وفي عام ١٩٥٦ ظهر كتاب باللغة الانكليزية للمؤرخ "صموئيل ن. كرمر" ، يدعى "من لوائح سومر : اول خمس وعشرين مأثرة حضارية في تاريخ الانسان المسجل." يعدد فيه كرمر خمسا وعشرين مأثرة حضارية قدمتها سومر للحضارة الانسانية منها المدارس والشرائع والفلسفة والحكم وسواها . وقد احدث هذا الكتاب ضجة في اوساط المفكرين ندر ان احدثها كتاب اخر خاصة في اوروبا .

السؤال الذى اثرناه في مطلع هذه الكلمة . اين ضاعت مآثر هذه الحضارة ، وما سبب توقفها عن الفعل في حاضرنا ، يقتضي تنقيبا علميا في ما خلف سومر من شعوب وحضارات : البابليين والاشوريين ، الفرس ، العرب ، العثمانيين ... حتى الزمن الحاضر ، بحيث يتبين للباحث اثر سومر في الحضارات التي تلت ، من جهة ، والحد الذى توقفت عنده الحضارة السومرية عن الفعل ، وسبب توقفها من جهة اخرى .

من المفارقات الغريبة التي لا يجوز قبولها ونحن في غمرة انبعاث ونهضة ، ان يكون "الوتر الذى نسج التاريخ على منواله آلاف الانغام" هو وتر من بلادنا ، في حين نغلق نحن ، ابناء هذه البلاد ، آذاننا عن رنينه . ان حاجتنا اليوم هي الى ان نفتح آذاننا وقلوبنا على رنين هذا الوتر الذى يأتي الينا من البعيد البعيد حاملا الينا نفحة من روح ماضينا العظيم .

---

1. Durant, Will, Our Oriental Heritage, p. 134.

المـــراجـــع

المراجع بالعربيـــة

باقـر، طه ، مقدمة في تاريخ الحضارات القـديمة (بغداد: شركة التجارة والطباعة ، ١٩٥٥) ، الطبعة الثانية ، منقحة .

مديرية الاثار القديمة العامة ، سومـــر ، مجلة علمية تبحث في اثار العراق القديمة . بغداد .

المراجع بالانكليزية

Braidwood , Robert J., The Near East and the Foundations for civilization, Condon Lecture, Engene, Oregon, (1952), p. 26.

Breasted, James Henry, Ancient Times (Boston: New York, Ginn & Co., 1916).

Butts, Robert Freeman, A Cultural History of Western Education (New York: McGraw-Hill, 1955), 2nd ed.

Cassirer, Ernest, The Myth of the State (New Haven: Yale University Press; London: G. Cumberlege, Oxford University Press, 1946).

_____ An Essay on Man (New Haven: Yale University Press, 1944).

Childe, V. Gorden, New Light on the Most Ancient East (London: Routledge, 1952).

_____ What Happened in History (Harmondsworth: Penguin, 1948).

Contenan, Georges, Every Day Life in Babylonia & Assyria (London: Arnold, 1954).

Delaporte, L. Joseph, Mesopotamia (New York: A. A. Knopf, 1925).

Driver, Codfrey Rolles, Semitic writing from Pictographic to Alphabet (London: British Academy, 1948).

Durant, W. James, Our Oriental Heritage (New York: Simon, 1942).

Easton S. Copinger, The Heritage of the Past (New York: Rinehart , 1955).

Frankfort, Henri, Archeology and the Sumerian Problem (Chicago: University of Chicago press, 1932).

_____ Kingship and the Gods (Chicago: University of Chicago press, 1948).

_____;
Frankfort, Mrs. H.A.; Wilson, John A.; & Jacobsen Thorkild, Before Philosophy , Pelican Books, A 198, (1954).

Heidel, Alexander, The Story of the Creation (Chicago: University of Chicago press, 1951), 2nd ed.

King, Leonard William, ... Chronicles Concerning Early Babylonian Kings (London: Luzac & Co., 1907).

_____ A History of Sumer and Akkad (London: Chatto & Windus, 1910).

Kramer, Samuel Noah, Sumerian Mythology (The American Philophical Society, Independence Square, Philosophia, 1944).

_____ From the Tablets of Sumer; Twenty Five Firsts in Man's Recorded History (Indian Hills; Cold Falcon's Wing Press, 1956).

Langdon, Stephen H. Babylonian Wisdom, (n.p., n.d. (Babyloniaca ca VII) Year (?)).

Maspero, G., The Dawn of Civilization (London: Sp. C.K., 1894).

Monroe, Paul, A Text Book in the History of Education (New York: Macmillan, 1905).

Pritchard, James B. (ed) Ancient Near Eastern Texts (Princeton; New Jersey: Princeton University Press, 1950).

Randan, Hugo, Early Babylonian History (New York: Oxford University press, 1899).

Rogers, Robert W. , A History of Babylonia and Assyria (New York: Abingdon Press, 1915), 6th ed.

Sarton, George, A History of Science (Cambridge; Harvard University Press, 1952).

Sayce, Archibald Henry, Social Life Among the Assyrians and Babylonians (New York: Revell, Year (?)).

Woody, Thomas, Life and Education in Early Societies (New York: Macmillan Co., 1949).

Woolley, Sir Charles Leonard, The Sumerians, (Oxford: Clarendon, 1929).

_____ Excavations at Ur (London: Benn, 1955).

المراجع بالفرنسية

Parrot, Andre;Mari, Documentation Photographique De la Mission Archeologique De Mari (Neuchatel et Paris, Editions Ides et Calendes, (1953).